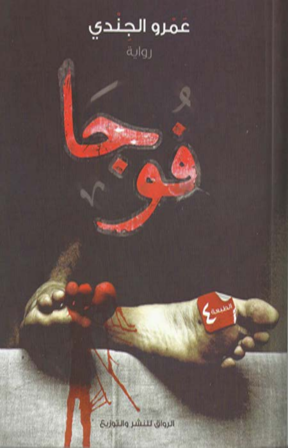

عَمْرو الجِنْدي
رواية
فوجا
الطبعة ٤
الرواق للنشر والتوزيع



الهروب.. دائمًا ما يكون من فعل خاطئ اقترفناه،

أو ربما جريمة أقدمنا عليها..

ولكن هنا.. الأمر يختلف تمامًا فإنه..

هروبٌ إلى الجريمة!!

إنه فوجا!!

تصميم الغلاف أحمد مراد





رواية

فوجـــا

عمرو الجندي

- الطبعة الثالثة.......... فبراير 2012
- الطبعة الرابعة.......... نوفمبر 2012

الغلاف: أحمد مراد

المراجعة اللغوية: مجموعة ضمة للتدقيق اللغوي

رقم الإيداع: 2012 / 10752

الترقيم الدولي: 978 - 977 - 5153 - 00 - 5



3 شارع إدريس – أول شارع الوحدة – إمبابة – الجيزة
هاتف وفاكس: 33100951 (202)
محمول: 01147379183
rewaq2011@gmail.com
facebook.com/Rewaq.Publishing

فوجـــا

روايـة

عمرو الجندي

الرواق للنشر والتوزيع

مقدمة

كان ياما كان، كان هناك قاتلاً، لحظة من فضلك، إن كان ياما كان هي الجملة المثلى التي ترتبط بقصص الأطفال والخرافات والأساطير، وإن كلمة "قاتل" هي كلمة للبالغين فقط، فكيف ترتبط تلك الجملة التي تشعرنا بأن ما يأتي بعدها مطمئنًا عذبًا يذكرنا بأجمل أيامنا بكلمة قاتل التي لا توحي سوى بالتوحش والجريمة، فبما أننا نعيش في ذلك العالم حيث يحمل كل منا في داخله الحلم والواقع، الخيال والحقيقة، عقل في الماضي البريء، وعقل آخر في الهاوية، فأرى أنه قد جاء الوقت لأقص قصتي كما ينبغي أن تكون، كان ياما كان كان هناك قاتلاً... لن أرهقكم بالتفاصيل ولكن دعونا نبدأ روايتنا.

عمرو الجندي

الفصل الأول

[١]

في هذا اليوم كان كل شيء متوقفًا للغاية حتى ملامح من قابلتهم في طريقي إلى المنزل، وما أزعجني هو شدة الهدوء الذي شعرته في جدران المنازل الذي أصابني بدوره بنوع من الخوف والرهبة حيث بدا لي كل شيء غير اعتيادي على الإطلاق وتمنيت لو أن الوقت يمر، شعرت أنني في كابوس وما علي سوى الإعلان عن صرخة ما ثم أتناول كوبًا من الماء وأعود إلى نومي الهانئ، ولكن لم أستطع الصراخ وبات كل شيء معلقًا كما هو ينخر في عقلي وقلبي معًا.

دخلت من باب منزلي حيث كان كل شيء كما تركته، ولأنني منظمٌ للغاية لم أعان في البحث عن مفكرتي لأكتب ما مر بي من أحداث خلال هذا اليوم الذي لم يصبني سوى بالشحوب أحيانًا والغثيان أحيانًا أخرى، وخلال محاولاتي البائسة والصعبة لتجميع أفكاري تذكرت أنه اليوم الذي لابد لي من دفع الإيجار فيه؟ لا أعلم لمَ لابد؟ ولكنني أشعر بوحدة حقيقية تهتك آدميتي، فقررت أن أحادث أي إنسان ولكن بشكل لا يحسبني فيه مجنونًا أو فضوليًا وكانت الطريقة المثلى هي دفع الإيجار والتحدث ولو بكلمات قليلة إلى صاحب المنزل، فبعض الكلمات قد تؤنس وحدتي وتشعرني بأنني أنتمي إلى هذا العالم فتركت مفكرتي في الدرج السري بسريري...

كانت أرجلي مثقلة للغاية يتنابها القلق ولكن كان فضولي أقوى لخوض حديث ما عند لقاء صاحب المنزل، نظرت يمينًا ويسارًا وبعد لحظات من فتح

الباب تخللها الإحراج والحذر حتى لا يحسبني أحدهم أتسلل، ولكنني لم أجد أحدًا في الممر الذي تقع فيه شقتي وشقة صاحب المنزل، وحين خروجي إلى الخارج دلفت مرة أخرى إلى داخل منزلي وأغلقت الباب خلفي حيث تملك مني الإحراج ربما لعلمي أنني ذاهب للمؤانسة وليس لتلبية التزام ضروري يقع على كاهلي ولكنني بعد ثوان من الحديث الجاد مع نفسي وبعض المحاولات القوية لتقوية رباطة جأشي مذكرًا نفسي بمعاناتي انطلقت خارج الشقة مرة أخرى وتركت الباب مفتوحًا واتجهت إلى شقة صاحب المنزل وعند نقر الباب لاحظت أن الباب مفتوحٌ، فانتابني القلق وعند دخولي بأول خطوة ناديت بصوت خفيض مترددًا ومتسائلاً:

"حاج إسماعيل، مدام صفاء"

ومع ثلاث خطوات أخرى في داخل المنزل سمعت تأوهًا يتعالى تدريجيًا مع اقترابي ومعه تتعالى دقات خوفي وهلعي وتمنيت لو أن الهدوء والوحدة يدومان، وتبًا لتلك المؤانسة التي ستصيبني بسكتة قلبية، وتعالى صوتي من الخوف مناديًا مرات متتالية بصوت مرتجف:

"حاج إسماعيل، مدام صفاء"

وهنا وفي تلك اللحظة أدركت أن ذلك التأوه آتٍ من غرفة النوم، فاقتربت في حذر شديد محاولاً الاستعداد بكل الوسائل لكارثة ما، وكذلك محاولاً الثبات وإغفاء الخوف والهلع حيث امتنع عقلي في تلك اللحظة عن تصور أي شيء، نعم في بعض اللحظات يمتنع العقل عن العمل حتى لا ننجرف إلى الجنون وأدرك أن ذلك في مصلحتنا بالتأكيد، كان باب غرفة النوم مغلقًا ففتحته فأصدر صوتًا زاد من هلعي، فقد كان صوت صريره أقرب ما يكون إلى الصراخ وما أن ولجت رؤيتي داخل الغرفة حتى وجدت الحاج إسماعيل ملقى على الأرض بجانب

سريره ممسكًا بحوافه وغطائه ملقى عليه يغطي نصف جسده والدماء تسيل من حوله وقد أوشكت عيناه على الاستسلام للانغلاق الأبدي فهرولت مسرعًا في اتجاهه ووقفت بجانبه مرتبكًا محاولاً ألا أُلطَخ بالدماء على الأرض وقد ملأني الذعر متسائلاً بشدة وبصوت عالٍ مرتجف:

"حاج إسماعيل، من فعل ذلك بك؟ حاج إسماعيل أجبني"

نظر لي طويلاً وكأنه يتعرف علي ثم حاولت شفتاه أن تتحدث ولكن دون جدوى، وأدى وهنه الواضح إلى توقف كل أنواع الحياة في وجهه وأغشي عليه فأدركت في هذه اللحظة بعد إصابة وجهه بالشحوب التام أن الحاج إسماعيل قد تُوفِّي، ولكنني تمالكت أعصابي وتحسست نبض يديه ووجدت أن الحياة مازالت تأخذ مجراها الضعيف في جسده الذي يواجه الموت عنوة.

ذهبتُ مسرعًا بأرجل خائفة خارج الغرفة لأبحث عن هاتفي الذي لاحظت عدم تواجده معي؛ لأتصل بالإسعاف وفي طريقي إلى الخارج وفي الردهة تعرقلت قدماي المصابة بالشلل الفكري حيث تخبط جسدي بإحدى قطع أثاث المنزل، فسقطت إحدى أواني الزرع التي كانت فوقها فتحطمت بدورها مصدرة صوتًا قويًا للغاية فحاولت لملمة أجزائها بسرعة بجانب إحدى الجدران ولكنني استسلمت لقدمي التي سحبتني خارج المنزل.

وفي منزلي شرعت أبحث كالمجنون عن هاتفي يمينًا ويسارًا حيث فقدت كل أنواع التفكير وشعرت بأن ذاكرتي قد اختفت في جزء من عقلي الخائف المرتعد، أي حظ ذلك الذي يجعلني أواجه تلك المأساة؟ فأنا بطبيعتي رجل مسالم وأخاف الدماء، بل إنني أخاف حتى لونها ويصيبني بالغثيان.

في النهاية وجدت الهاتف ولا أعتقد أن الوقت الذي مر كان طويلاً وقد لاحظت خلال بحثي أن هناك ضجة كبيرة في الشارع المجاور ولكنني لم

أعرها انتباهًا بفعل الكارثة التي تلازمني، وفجأة خلال اتصالي برقم الإسعاف سمعت صوتًا بدا كصوت الأقدام المهرولة.

فهرولت مسرعًا إلى الخارج دون إدراك طلبًا للمساندة والمؤازرة وربما ليطمئن خوفي وكان خفق النعال في منزل الحاج إسماعيل عاليًا مرتبكًا ولكنه يبدو لشخص واحد فقط، وحين إدراكي المنزل تنقلت بطرفي بين جوانب الشقة متأملاً مستحوذًا علي الهلع بنفس هاجسة متوجسة ولكنني لم أجد أحدًا فتعجبت كثيرًا! ثم سرعان ما نفضت ذلك عن عقلي غير مبالٍ وانطلقت إلى غرفة الحاج إسماعيل لأطمئن عليه وأنا أحاول تذكر رقم الإسعاف الذي ضاع في ذاكرة النسيان بفعل الصدمة، وخلال دقيقة تقريبًا سمعت صوت أقدام في الشقة من الخارج فشعرت بالطمأنينة والخوف معًا، ولكنني خرجت آملاً أن أجد من يساعدني وبالفعل بعد خطوتين خارج الغرفة وجدت أنه – السيد كريم – الشاب الذي يقطن في الطابق العلوي والسكير دائمًا والمعروف بهرطقته ولا مبالاته. تعجبت للحظات لم تأخذ من وقتي طويلاً ولكنني تذكرت أخطائه الدائمة في نقر أبواب الجيران حين عودته مترنحًا من أثر الخمر غير مدرك لمنزله.

وفجأة حين رآني صاح بصوت عالٍ:

"لماذا قتلته؟ ماذا فعل لك؟ إن كنت تريد شيئًا فلمَ لم تأخذه دون دماء؟"

جحظت عيناي من هول المفاجأة وانكمشت على نفسي ثم سرعان ما انتزعني من انكماشي صراخه المتتابع:

"الحاج إسماعيل قُتل، الحاج إسماعيل قُتل، قتلت الحاج إسماعيل"

فهاجمته محاولاً تهدئته قائلاً بصوت متلعثم خافت:

"لم أقتله، لم أقتله"

حاولت مرارًا كتم أنفاسه كي لا يصدر ضجيجًا مستثيرًا شفقته والأسى

والهلع والتوسل يخر من عيني وباقي ملامحي وفي نفسي سؤالٌ:

"ألا يدحض هذا ما يحاول الإيمان به؟ بأنني قتلت!"

ولكن دون فائدة، وازدادت محاولاته المتكررة ليبعد يدي عن فمه حتى يستطيع الصراخ ولكنني لم أشعر في تلك اللحظة سوى بضرباتي على رأسه بقوة ثم في وجهه فحاول جاهدًا إبعادي وأنا نائم فوقه على الأرض حيث انتابتني حالة جنونية ومددت يدي بجانب الحائط لآخذ إحدى القطع المتكسرة من إناء الزرع لأدسها في صدره كالسكين مرات عدة دون وعي مني، وبطعني له عدة مرات متتابعة وبسرعة مجنونة لم أسمع صوته البائس فنهضت سريعًا من فوقه زاحفًا إلى الوراء مرتعدًا... وفي تلك اللحظة سمعت وقع نعال على السلم وقد بدا أنهم عدة أشخاص يقتربون من الطابق الذي توجد به الشقة فنهضت مهرولاً إلى داخل إحدى الغرف الأخرى التي تقع بجوار غرفة الحاج إسماعيل وفطنت أن الباب المفتوح قد يجلب الانتباه لزوار السلم وكنت أحاول بقوة ردع أنفاسي السريعة والمتلاحقة ومحاولة تقوية نفسي مستعيدًا بكل الطرق رباطة الجأش، ولكن باءت كل محاولاتي بالفشل إلا المحاولة الأخيرة التي ملكتني نوعًا ما، وبالفعل حدث ما توقعت حيث صرخ الأول صرخة مدوية كامرأة سُرِقَت حقيبتها الخاصة في شارع عام:

"قتيل، قتيل"

بينما لم أسمع صوتًا للآخر سوى وقع قدمين تتحركان بهدوء وحذر شديدين وسمعته يقول بصوت مرتعد صارخ بعد أن توقفت قدماه للحظات:

"قتيل آخر، إنه الحاج إسماعيل"

وهنا تأكدت أن الحاج إسماعيل بالفعل قد فارق الحياة وامتلأت مدامعي حيث خالج تفكيري شيء واحد وهو حكم الإعدام بقتل اثنين لم أقتل منهما

سوى واحد بدون قصد، حيث لم تكن نيتي على الإطلاق أن أقتله ولكنه الحظ العثر، تخبطت جميع الأفكار في رأسي، والهواجس والمشاهد دقت قلبي المفطور سلفًا فاقشعر جسدي وسرعان ما انتشلني صوت وقع النعال المسرعة التي ابتعدت خائفة من هول الواقعة حيث سمعت أحدهما يردد بصوت عال:

"يا ساتر يارب، يا ساتر يارب، اللهم ارحمنا، ماذا حدث في هذه الحياة؟! وماذا حدث للبشر؟!"

بينما سمعت الآخر يقول مرتجفًا وقد استحوذ عليه الهلع:

"سأتصل بالشرطة حالاً ولكن علينا الابتعاد عن تلك الشقة المنكوبة..."

واختفى الصوت تدريجيًا فلم أستطع سماع باقي الكلمات وعندما شعرت أنهما قد غادرا بعيدًا هرولت مسرعًا خارج الغرفة وانتشلت أحد المفارش الصغيرة الملقاة على أحد المقاعد وقمت بتنظيف البصمات من حول كريم، ولاحظت فجأة أن يدي اليسرى تنزف وما أن فتحتها حتى فوجئت بوجود قطعة الزجاج الغليظة التي قتلت بها كريم، فأخفيتها في المفرش وطويته ونظرت نظرة أخيرة على كريم المقتول، كم ينتابني إحساس بالفضول بمعرفة شريكي في الجريمة!! ثم اتجهت إلى باب الشقة الذي تُرك مفتوحًا من هول المفاجأة على زوار السلم ونظرت خارجًا يمينًا ويسارًا بحذر شديد ثم هرولت مسرعًا إلى شقتي التي احتضنتني بمجرد الدخول.

حاولت تجميع أنفاسي بشتى الطرق وأنا أغسل يدي محاولاً أن أتنصل من الجريمة الملقاة على عاتق ضميري المرهق ولكن بدون فائدة، فأنا قاتلٌ أولاً وأخيرًا، ولن يرحمني القانون... ولكن أين روح القانون؟! انتابتني العديد من الأسئلة غير المنظمة وغير المفهومة، وحينما استحوذ على قلبي الهلع بات عقلي بلا أدنى فائدة تذكر، ولكن كان السؤال قاسيًا عندما واجهته بنفسي:

"كيف فكرت في مسح بصماتي من حول كريم؟! وهل هذا عمل طبيعي لإنسان لا يعلم أي نوع من أنواع الجريمة؟!"

انتابني الخوف في هذه الثواني المعدودة حيث اقتنعت في داخلي أنني مجرمٌ بلا أدنى شك على الإطلاق، مجرمٌ بالفطرة.

وفجأة سمعت صوت نقر أقدام خارج شقتي في الممر الذي يحوي جميع الشقق في طابقي، ويبدو أن صاحب الأقدام يجر شيئًا على الأرض بصعوبة شديدة حيث كان الصوت كصوت الرياح الخريفي الذي يداعب الأشجار، ولكنه صوتٌ لا يبعث في القلب إلا الخوف والألم، لم أحاول التلصص لمعرفة من بالخارج فيكفيني فضولاً، ففضول أخر قد يؤدي إلى جريمة أخرى.

بالفعل وصلت الشرطة وتعالت دقات قلبي تباعًا مع كل خطوة يقتربون بها، وهنا تنبهت أن الضوضاء الخارجية التي صدرت حين محاولتي التقاط الهاتف كانت بسبب احتفالية يقيمها أحد المحال الشهيرة لافتتاح أحد فروعه في منطقتنا حيث أعلن عن ذلك منذ يومين وكان الجميع في انتظار ذلك الحدث لما يقدمه في أول يوم من خصومات تصل إلى التسعين في المائة هدية وامتنانًا لزبائنه الكرام، وتذكرت أنني كنت في انتظار ذلك اليوم كي أستطيع أن أشتري شيئًا خاصًّا لي ولكنني نسيت تمامًا الموعد وليتني تذكرت.

قفزت بعيدًا عن الباب محاولاً أن أجعل من نفسي آذانًا صاغية والخوف والرجفة تنهش جسدي الذي أوشك على السقوط، حاولت في مضض أن أقنع نفسي بأن الشرطة لن تجد دليلاً واحدًا على إدانتي وسيمر الأمر بسلام وانصرمت بعض الدقائق من بعد دخول الشرطة حيث سمعت أحدهم يحدث آخر:

"هناك جثة واحدة فقط لشاب مقتول بطعنات عدة في صدره"

فرد أحدهم وهو يشعل سيجارة حيث كان صوت قداحته ينهش الهدوء البغيض:

"لكن البلاغ يقول أن هناك قتيلين"

"تستطيع أن ترى بنفسك يا سيدي"

بعد لحظات معدودة قال وقد بدت في صوته الثقة:

"سارى"

[٢]

حين دخل النقيب سالم من باب الشقة كانت نظراته ثاقبة للغاية تمر يمينًا ويسارًا قاطعة المساحات الفارغة بتمهل ثم قال بهدوء موجهًا كلماته إلى رجال الأمن المرافقين وهو ينحني ناظرًا إلى وجه الجثة الملقاة وهو ينفث دخان سيجارته بعمق:

"لا يلمس أحدكم شيئًا ولا يحرك شيئًا لحين وصول وكيل النيابة والطب والشرعي"

نظر النقيب سالم بجوار جثة كريم بتمعن شديد حيث كانت الدماء تحيطه في مشهد مثير ثم نظر فجأة إلى قطع الزجاج المتكسرة الخاصة بإناء الزرع واستمرت نظراته طويلاً ثم نهض آمرًا أحد رجال الأمن بأن يبتاع له علبة من السجائر بعد اكتشافه أن السيجارة الأخيرة هي بداية ليلة طويلة للتدخين، ثم تثاءب قائلاً كأنه يحدث نفسه بنوع من الاستنكار:

"يبدو أنه لا نوم هذه الليلة أيضًا"

كان حسين في تلك اللحظة يجلس منتفضًا محاولاً التماسك بشتى الطرق ولكن لم تكن هذه الحالة أكثر من مجرد هروب من الحقيقة المؤلمة بأنه قتل ولديه أداة الجريمة لشخص واحد وليسا شخصين وكان الهذيان له تأثير قوي على ردود أفعاله حيث يبتسم ثغره أحيانًا وكأنه يطمئن نفسه محدثًا إياها أن ما حدث مجرد كابوس مرير ولقد عاد الآن إلى حياته الطبيعية ولا يحتاج الأمر لأكثر من

كوب ماء أو جولة بسيطة حول المنزل، وأحيانًا أخرى كان يشعر بأن نهايته أعلنت بدايتها وهجست له نفسه أن عليه القضاء على حياته حتى لا تتآكله الهواجس، فهو لا يريد شيئًا أكثر من نهاية، فإن في النهايات راحة رغم وجعها أحيانًا.

ولج في تلك اللحظة مسرعًا مرتبكًا إلى دورة المياه الخاصة به حين تذكر أن أداة الجريمة قد نساها بالفعل في الداخل فانتابه تفكير غريب بأنه إن وجدها - أداة الجريمة - فهو ليس داخل كابوس على الإطلاق وإن لم يجدها فهو بالفعل بريء، وكانت المفاجأة السعيدة بأنه لم يجد أداة الجريمة، خرج سعيدًا بتعجب وخوف شديدين يمشي بتمهل خارجًا من دورة المياه وهو يلامس صدره بإحدى يديه محاولاً أن يعيد المشهد الذي رآه في كابوسه المرير ولكن كانت الصدمة مريرة للغاية حين رأى أداة الجريمة تنتظره في الخارج ملقاة على طاولة فتجشأ الأسى وتململ في مكانه فلا مناص الآن من الجزم من أن ما حدث قد حدث بالفعل.

في تلك اللحظة وصل وكيل النيابة محمود وقد عُرِفَ عن هذا الوكيل فطنته وذكاؤه الحاد النافذ، حيث درس محمود بجانب دراسته علمَ النفس، وكان محمود صديقًا لسالم ضابط المباحث المخول بالبحث في تلك القضية حيث تجمعهما صداقة إبان أيام الدراسة. وحين دلوفه إلى الشقة المنكوبة نادى سالم الذي كان ينظر بدقة على الحيطان فنظر له سالم مبتسمًا ثم نهض قادمًا إليه محاولاً تفادي أي شيء قد يفيد في فك رموز الجريمة أو لمس أي شيء مهما كان صغره وبالفعل تصافحا بجانب الجثة حيث توسطت الجثة لقاءهما، ثم نظر محمود نظرة سريعة على وجه القتيل وهو يبتسم ابتسامة باهتة قائلاً:

"كنت أتمنى أن نلتقي في مكان أفضل من ذلك، فأنا لم أرك منذ مدة"

فقال سالم مداعبًا:

"أشعر أنه المكان الوحيد الذي يجمعنا بحميمية"

ضحك الاثنان وشرع سالم في سرد ما حدث منذ تلقيه البلاغ وتوسط سرده إشعال سيجارة أخرى ثم تفقد محمود المكان بتأنٍّ تام وبعيون تخر منها الحصافة والاتزان، ثم دلفا غرفة الحاج إسماعيل ونظر الاثنان إلى الدماء في الغرفة لبرهة ثم قال محمود:

"يبدو أن هناك أثار جر لشيء ما حيث كان ذلك واضحًا في أرجاء الشقة حتى في الردهة إلى أول السلالم المؤدية لأسفل، ولكن الغريب أن أثار الدم اختفت من بعد ذلك"

أومأ سالم رأسه بالموافقة قائلاً:

"كما حدثتك أن المُبلغ قال أن هناك قتيلين وحين وصولنا لم نجد سوى جثة واحدة كما رأيت"

سيصل الآن فريق الطب الشرعي ليقوم بعمله وسنعرف الحقيقة لاحقًا، ولكن حتى ذلك الحين علينا بتفقد الجيران لأنني أحتاجهم في تحقيقي.

مفهوم.

انتقل الاثنان خارج الشقة وقد كان كل طابق يحوي ثلاث شقق فنقرا الشقة المجاورة ولكن بلا إجابة فقال محمود لسالم:

"لنتفقد الشقة الأخرى"

نقر الباب وكأن ما ينقر هو منقار نسر جارح في قلب حسين الذي جحظت عيناه ولمعتا وقدح زناد الفكر للحظة وقد علم أنه لا مناص من فتح الباب وبالفعل فتح الباب بهدوء ولكنه فجأة قام بتمثيل دور الناهض من نومه ثم نظر إليهما بتعجب مفتعل بينما نظر له سالم ومحمود نظرة قد تم إعمال الفكر بها فقال محمود:

"مساء الخير"

تلاحم حاجباه متعجبًا ثم قال:

"مساء النور، من أنتما؟!"

"أنا وكيل النيابة محمود وهذا ضابط المباحث سالم ونريد أن نطرح عليك بعض الأسئلة، ما اسمك؟"

فقال في فتور وهو ينظر خلفهما على شقة الحاج إسماعيل وكأنه يحاول معرفة ما يجري:

"ماذا حدث؟ ولَمَ كل تلك الجلبة في شقة الحاج إسماعيل؟!"

فقال سالم:

"يبدو أن أحدهم قد تم قتله الليلة"

فانتفض قائلاً في ذعر:

"ماذا؟ يا الله، قتلوا الحاج إسماعيل، من هؤلاء؟!"

فقال محمود:

"هدئ من روعك، ألم تسمع أي جلبة أو ضوضاء أو صراخ؟!"

لا لم أسمع شيئًا وإلا لتنبهت فلقد كنت نائمًا منذ أن جئت من عملي"

منذ متى وأنت نائم؟

منذ السادسة مساءً.

فقال محمود:

"سأنتظرك غدًا في تمام الساعة التاسعة صباحًا لتدلي بأقوالك"

فقال حسين متعجبًا:

"ولكنني لم أر شيئًا، لقد قلت لك أنني كنت نائمًا"

فابتسم محمود قائلاً:

"ولكن عدم رؤيتك يجب أن تكون مسجلة في محضر رسمي"

واتجه الاثنان تجاه الشقة المنكوبة حيث كان حسين مازال فاتحًا الباب ينظر لهما ثم فجأة نظر سالم خلفه لينظر لحسين نظرة ذات معنى يصاحبها ابتسامة باهتة فسرت قشعريرة في جسد حسين الذي بادله نفس الابتسامة الباهتة ولكنها ابتسامة خائفة.

الفصل الثاني

[١]

كان الزحام يعم الشارع متجمعًا في مكان واحد حول المنزل بعد انتشار خبر الجريمة البشعة التي فاحت رائحة دمائها بين الجيران والمارة الذين لا ينتمون إلى الشارع، حيث حاول رجال الشرطة تفرقة تلك الجموع ولكن بلا فائدة ووسط الجموع جاءت سيدة تتسم ملامحها بالشرقية والعيون التي تم حفرها بعناية فائقة في وجهها مما أكسبها نوعًا من الحدة والجاذبية في آن واحد، وقد بدا أنها ثلاثينية العمر تحمل في يديها أكياسًا تسير في توجس وخيفة محاولة اختراق الجموع وقد سادت ملامحها الحيرة والقلق وتخلل اختراقها لتلك الجموع بعض الأقوال التي تناولتها أذناها دون إرادة:

"لا حول ولا قوة إلا بالله، رحمتك يارب"

"يبدو أنه لم يتم العثور على القاتل"

"لقد سمعت أنهم وجدوا ثلاث جثث تم ذبحها"

فهرولت مسرعة تحاول استنكار ما تسمع وحين صعودها استوقفها أحد رجال الأمن قائلاً:

"إلى أين؟!"

فقالت برجفة وتوجس:

"أنا أقطن في الطابق الرابع، أنا من سكان هذا المبنى"

فأذن لها بالمرور ثم استدارت في خيفة قائلة:

"ماذا حدث؟!"

- جريمة في الطابق الرابع.

فقالت وقد انتابها الذعر بصوت مرتجف:

"جريمة!"

- نعم، جريمة قتل.

انتابها الفزع وجحظت عيناها وحدجت نظرة متأملة غير واعية في رجل الأمن ثم سرعان ما صفقت باب غرفة أفكارها هامسة لنفسها:

"لا، لا يمكن"

هرولت مسرعة حتى كادت أن تقع أكثر من مرة وحين وصولها إلى طابقها وجدت باب الشقة مفتوحًا وهناك العديد من رجال الأمن بجوار الباب وتحيط المبنى بشكل عشوائي ثم سرعان ما توقفت على الباب لتنظر نظرة سريعة داخل الشقة لتجد أنها مزدحمة بأناس مختلفة أشكالهم جميعًا وتصرفاتهم المختلفة توحي بأن الجريمة حدثت بداخل شقتها، وفي طريقها دون أن ينتبه أحد لها تعثرت قدماها في جثة كريم التي تم تغطيتها بمفرش أبيض طويل يبدو كالكفن فصرخت صرخة مدوية ثم سقط من يديها كل شيء وهرولت إلى داخل الشقة وهي تصرخ في حالة هيستيرية:

"لا، لا، لا"

تنبه الجميع لوجودها وجرى خلفها ضابط المباحث سالم واستوقفها محاولاً تهدئتها قائلاً:

"اهدئي، اهدئي"

وأمسك بيديها بقوة وهي تحاول الإفلات غير واعية لمن يتحدث إليها قائلة:

"قتلوا زوجي، قتلوا زوجي"

كان محمود وكيل النيابة ينظر إليها طويلاً في هدوء وأسى، ولكن تلفعت نظرته بالشك وتكهن بأنها هي صفاء زوجة الجثة المفقودة أو ربما الشيء المفقود.

بعد دقائق أتاها أحد أفراد الأمن بكوب من الليمون وهي جالسة على إحدى الكراسي في ركن بعيد عن عمل رجال الشرطة وفريق الطب الشرعي الذي كان منهمكًا في رفع البصمات ومعاينة الجثة وأخذ عينات من الدم التي ملأت أرض الشقة والزجاج المتكسر بينما كان محمود يتحدث إلى سالم وانتبه محمود لهدوئها الغريب وكأنها في عالم آخر تمسك بكوب الليمون دون أن ترتشف منه شيئًا وهي تداعب حوافه بحركات غير إرادية فاستأذن سالم ثم اقترب منها محاولاً أن يتسم ابتسامة مواسية قائلاً:

"لا نعلم حتى الآن ماذا حدث، ولكننا نعمل على كل شيء ولكنني أحتاج منك بعض الإجابات على بعض الأسئلة البسيطة وسنكمل فيما بعد فأنت تعلمين أن الأمر ليس بسيطًا على الإطلاق وليس باليد حيلة"

أومأت برأسها متفهمة في أسى وكدر دون أن تنبس ببنت شفة ثم قال حيث جاء سالم ليقف بجواره في تلك اللحظة:

"أين كنت يا مدام صفاء؟!"

قالت وما زالت عيناها متعلقة بالأرض وقد ساد ملامحها الوجوم:

"كنت أبتاع بعض الأشياء للمنزل"

- من أين؟!"

- من الشارع المجاور فهناك احتفال بمناسبة افتتاح أحد المحال الجديدة وهم بمناسبة الافتتاح يعلنون عن خصومات كبيرة.

- هل كان هناك أعداء للسيد إسماعيل أو لكِ؟

نظرت له بتعجب شديد ثم غضت بصرها بعيدًا وقالت:

"لا، نحن أناس مسالمون للغاية لا نملك أعداءً على الإطلاق"

– ومن تظنين قد يكون له يد فيما حدث؟!

– لا أعلم.

ثم سرعان ما أردفت والدموع تنساب من عينيها:

"أنا لا أستطيع أن أجيب على أسئلتكم الآن ولكنني أستطيع أن أجيب عليها لاحقًا فأمهلوني الليلة إن سمحتم لي"

فقال لها سالم:

"سؤال أخير من فضلك"

– "نعم"

– ما هي صلة زوجك بكريم الذي يقطن في الطابق العلوي؟!

فتعجبت من السؤال للحظة حيث تشابك حاجباها قائلة:

"كريم!، إنه جارنا ليس أكثر"

فقال لها بعد لحظة من التفكير:

"هل يمكنك أن ترافقيني لوهلة؟ وأعتذر لكثرة ما أطلب ولكنك تعرفين موقفنا"

اقتربوا جميعًا من الجثة الملقاة ثم سرعان ما قالت بازدراء وخوف شديدين:

"لا أرجوكم لا أستطيع أن أراه هكذا، كيف أستطيع رؤيته ميتًا وبتلك الطريقة؟"

فقال لها محمود مطمئنًا:

"لا تخافي سيدتي فإنها مجرد نظرة واحدة"

فكشف سالم الغطاء عن وجهه فإذا بها تعود للوراء وقد انتابتها حالة من

الذهول والخوف وانكمشت على نفسها في أحد الأركان وقد توقف الكلام خلف شفتيها حيث فغر فوها بينما قال محمود:

"هل تعلمين من هو؟!"

فأومأت رأسها بالإيجاب وهي تحاول إدراك الأمر ومحاولة فهم ما يحدث ثم قالت بصوت خفيض للغاية:

"كريم جارنا!"

فقال لها سالم:

"يبدو أننا لم نجد زوجك حتى الآن"

فقالت دون وعي:

"كيف؟! وأين هو؟!"

فقال محمود وهو يلوح بيديه:

"لا نعلم ولكننا سنعلم إن شاء الله"

ثم ابتسم محمود لها وأردف قائلًا:

"سانتظرك غدًا في الصباح ولن نطيل عليك الآن أكثر، ولكن لا يمكنك المكوث في الشقة هنا، فهل هناك مكان ما يمكنك الإقامة فيه؟"

"نعم في الطابق العلوي"

جيد جدًا، سأترك لك بعض رجالنا للحراسة بالطبع وستحضرين هنا في الصباح بصاحبة رجال المباحث لترى إن كان هناك شيء مفقود.

أومأت رأسها بالإيجاب بينما أردف محمود قائلًا:

"نستأذنك الآن"

[٢]

هل هناك شيء مفقود؟ أم أنه فقد العقل للقدرة علـى التفكير؟!، كان هناك شيء يدفع حسين للذهاب جيئة وذهابًا حيث بات كل شيء في عقله غير مستقر غير واضـح، وأصبحـت كل أفكاره مجرد هواجس لا يمكن التقـاط إحداها، وسرعان ما جنـح إلى فتح الشباك المطـل على الشارع مشعـلاً إحدى السجائر التي لم يتناولها إبان الأعـوام المنصرمة الأخيرة ولكنه لم يعلـم يومًا سر احتفاظه بهـا، ولم يتوقع في قـرارة نفسـه أن استخدامهـا الأول سيكون بعـد ارتكاب جريمة، إن حسين ذلـك الشاب الطويل قـوي البنية صاحـب الشارب الكث والبشرة السمراء يعيش وحيدًا في ذلك العـالم منذ انتقاله من الشرقية إلى القاهرة للعمل بها.

انتقل إلى أداة الجريمة وصدر منه صوت عميق متهدج:

"أواه"

ظل باحثًا في مكونات ذلك السلاح الزجاجي الـذي حول أربعة وثلاثين عامًا إلى حياة مهشمة منكوبة... انقبضت أساريـره وسأل نفسه سؤالاً أجلسه غضبًا على أحد كراسي ردهته:

"هل قتـل كـريم كان الشيء الوحيـد للهروب مـن تلك الكارثـة؟! وهل الهروب بكارثة أخـرى هو الهروب الوحيـد المتاح؟! أم أن هنـاك شيئًا داخله كان يحمل سلاح الجريمة مسبقًا ولكنه لم يعلم مسبقًا بذلك؟ وهل كريم يستحق القتل؟!

فإن أكثر محادثـة دارت بينهما كانـت خلال عدم وعي الأخـير من بعد ليلة طويلة قضاهـا في إحدى الحانات في وسـط البلد عندما جاء مخمـورًا ينقر بابه بدلاً من اللجوء إلى شقتـه، ولكن أولاً وأخيرًا هي عادة كـريم في الأشهر القليلة الماضية، نعم إنه يتذكر جيدًا تلك المحادثة وعاد بذاكرته للوراء عندما قاطع كريم مشاهدته لأحد الأفلام وهو ينقر بنقرات غير منتظمة على بابه:

"من الطارق؟"

يأتي الصوت من خلف الباب عاليًا:

"صاحب المنزل بالطبع"

لم يتردد في أن يفتح ربمـا ليسلي وحدته الجامحة، ومـا أن فتح حتى قال كريم بابتسامة مخمور:

"أجمل شـيء في الحياة أن تجد من يفتـح لك دائمًا... رغـم علمك بأنه لا أحد يريدك"

سحبه داخل المنزل وأجلسـه على أحد الكراسي وخـلال سحبه كان كريم يغني إحدى الأغاني القديمة للسيدة أم كلثوم التي تتردد في أذنيه الآن:

"أعطني حريتي، أطلق يديَّ، أنني أعطيت ما استبقيت شيئًا"

جلس كريم ينظر لـه طويلاً وهـو يغني بصوت بـدا بالعلو مـع نظراته التي أرهبت حسين لحد مـا حتى انخفض صوت الأول بالتدريـج ثم قال وهو ينظر إلى أرجاء الشقة:

"لم أنت هنا؟!"

فقال حسين بصوت يحاول التودد:

"إنها شقتي يا أستاذ كريم"

فاوما رأسه ناظرًا له للحظة ثم حدد نظرًا طويلاً في السقف قائلاً:

"سأذهب الآن، ولكن عليك أن تعلم أن هدوءك ليس أكثر من عاصفة، أنا أعلم ذلك... لكنك لا تجد الطريق الصحيح لتوجه به عاصفتك"

تعجب حسين لوهلة لوقع كلماته قائلاً:

"لا أفهم"

فنظر له كريم وهو يسير في اتجاه الباب دون أن ينظر إلى الخلف محاولاً السيطرة على اتزانه المفقود من أثر الخمر:

"لقد وجدت الطريق لأعيش كما ينبغي، الطريق بلا ترنح، وجدت وجهة عاصفتي"

عاد حسين من ذكرياته محاولاً أن يفهم سر تواجد كريم وماذا كان يعني؟! ولم وجه تلك الكلمات له هو بالذات؟ وما الذي يرمي له من ورائها؟! فيبدو أنه تأثير الخمر قد فضحه ولكن فضحه بشكل غامض.

وقف حسين أمام مرآته يحدثها في توجس وخيفة وكأنه يتعرف على نفسه لامسًا ملامحه وقد استحوذت عليه الحيرة والهلع ثم قال لنفسه جاحظًا عينيه:

"هل ذلك هو الطريق الصحيح؟"

وسرعان ما عاد حسين ليتذكر لقاءه مع ضابط الشرطة ووكيل النيابة اللذين بديا أكثر ذكاءً مما يجب، ولكن كيف شعر ذلك وهو لم يلتق يومًا بأي رجل من رجال الشرطة سواء أكان جانيًا أو مجنيًا عليه؟ وانتابته نوبة من الهلع حيث كانت نفسه هاجسة متوجسة فهل وضح أي شيء على ملامحه تجعلهما يشكان به؟ وهل لاحظ أحدهما شيئًا؟ ولم تلك النظرة المريبة من ضابط المباحث له وتلك الابتسامة التي اقشعر لها بدنه؟! ولكن ما جعله يخاف بشدة هي ردود أفعاله التي كانت هادئة للغاية؟ وكيف تسنى له أن يمثل دور الناهض من نومه؟ وكيف أتته تلك الفكرة في لحظات وخيل له أن هناك شيئًا في داخله لا يعلمه عن نفسه؟

فهو لم يرتكب جريمة مسبقًا ليعلم ردود الأفعال الواجب توافرها فيه في تلك الحالة، فربما إنه الدفاع الغريزي عن الحياة.

وتذكر حسين أيامه البائسة في الماضي حين كان يعيش مقهورًا من الجميع بسبب والدته المظلومة التي عانت من كبر والده وظلمه المتتالي لها، فقد اتهمها بالخيانة وهي لم تكن خائنة لكي يتسنى له الإجهاض عليها والزواج من أخرى، ولم تكن أمه الضحية الوحيدة بل كان هو الضحية الأكبر فخلال تلك الأعوام تكوّن لديه كبتٌ رهيبٌ جعله يهرب من العالم ويخاف منه ومن البشر غير عابئ بالحصول على صديق أو زوجة، ولكن أحيانًا ما يشعر بأن العالم قد ضاق عليه وعليه الهروب إلى شيء ما أو فعل ما لينهي كل ذلك الكبت.

ضجره التفكير والقلق والعودة إلى الماضي وظل ساكنًا مشتتًا يربط ما حدث بلقائه بكريم ونكس رأسه متأوهًا ثم زفر تنهيدة طويلة سقطت من بعدها دمعة قائلاً:

"أنا قاتل"

[٣]

وهناك في أحد الأركان كانت تتمدد على أريكة في سكون تام في الطابق السادس حيث كان زوجها يملك المبنى بالكامل بينما طوقت الشرطة مكان الحادث بذلك الشريط الأصفر الذي لم تره يومًا سوى في أفلام السينما، وهناك جفاها الكرى حيث ملأها الذعر مما حدث بل شعرت أن هناك شيئًا ما يختلج في صدرها وينحرها ألف مرة حتى أن صوت ضباط الأمن المؤانس لها في الخارج والقائمين على حراستها لم يقدح زناد الأمان ولو لثانية واحدة في أعماقها، وتراءت لها حياتها أمام عينيها حين قابلت إسماعيل في أول يوم... لكم كان رجلاً كريمًا هادئ الطباع ملمًا بكل شيء يحمل صفات الرجل الذكي الودود، ولكنه يكبرها بعشرين عامًا والغريب أنها لم تشعر بذلك الفارق يوم لقائهما.

فقد كانت تعمل موظفة في إحدى شركات المقاولات وقد رآها إسماعيل حين زيارته لصاحب الشركة وكانت نظراته لها تنم عن الإعجاب الخالي من أي رغبة تعرضت لها خلال حياتها رغم أنها لم تكن بالجمال المبهر الذي يجذب ذوق رجل مثله، ولكن لكل رجل نموذجًا خاصًا يراه في امرأة ما، وهكذا توالت الأيام ليتعرف عليها وعلى عائلتها الفقيرة وفي تلك المدة أيقنت أنه يريدها لتشاركه حياته ولكن ما تعجبت له أن إسماعيل لم يسبق له الزواج، ولم تسأله يومًا عن سر ذلك بل اكتفت به كمخلص لها وليعوضها عن الأيام

المتصدعة المصابة بشلل الفقر الدميم، ورغم علمه بسابقة زواجها إلا أن ذلك لم يجعله يفكر كثيرًا حتى يرتبط بها، وإن كان الأمر بيعًا وشراءً فإنه أفضل العروض المقدمة لها.

انهمرت الدموع من مآقيها حتى شعرت بجفاف مدامعها وسرعان ما سكنت فجأة تحاول معرفة ما جرى بالضبط، وما هو سر اختفاء جثة زوجها؟! ومن وراء اختفاء الجثة؟! وأين اختفت؟! والغريب في تلك اللحظة أنها بكل عزيمة وقوة ذهبت كالمجنونة تفتش هنا وهناك في جميع أركان الشقة وداخل أثاثها وتحت السرائر فإن أيدي الشرطة لم تصل هنا فرأت أن عليها توسيع جهودها.

تأوهت في فتور مدهش لفشلها في إيجاد الجثة الضائعة ثم سارت تجاه غرفتهما تنقل طرفها بين أركانها المختلفة في ثبات وسكون وقد بدا عليها التعجب الشديد ثم تململت في مكانها وقد أصابها إعياء لجة الفكر وقد حاورها عقلها حيث تذكرت جثة كريم الذي أصيب بالعديد من الطعنات، وفجأة هزت رأسها محاولة تحريك الأفكار في رأسها حتى تتخبط بقوة في جدران عقلها ربما تصاب بفقدان الوعي فتخلد إلى النوم، فما هو السر وراء مقتل كريم؟! ومن قتله؟ ولِمَ قتله؟! وسرعان ما دلفت إلى المطبخ لتقوم بإحضار قهوة لها لتساعدها على البقاء.

شرعت تفكر في لقائها مع ضابط الشرطة وصديقه وكيل النيابة الذي بدا أكثر ذكاء مما يبدو، وهل رد فعلها في مشاهدة جثة كريم كان أمرًا مبالغًا فيه؟ ولكن ماذا تفعل؟ فلقد كان الأمر مرعبًا للغاية غير متوقع؟ ثم مالت على روحها حين سمعت النار تقاوم قطرات القهوة المتساقطة، فشرعت تنظر للمشهد بأعين حادة وشرود، دوى صوت الأذان في تلك اللحظة ليعلن قدوم يوم جديد ولكنه يوم قد يحمل ما لا تتوقعه...

"الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله".

الفصل الثالث

[١]

في هذه اللحظة كان وكيل النيابة محمود يقبع في غرفته يقلّب في بعض الأوراق ويحتسي قهوته في سكون وقد احتوى ملامحه الهدوء وبعد انتهائه من قهوته قام بقرع الجرس لاستدعاء أحد رجال الأمن الواقف دائمًا أمام غرفته وما أن دخل حتى أمره بأن يأذن بدخول أحد المبلغين عن الحادث وهو الشاهد الأول في قضيته، وسرعان ما دخل وحيى وكيل النيابة الذي قابله بمودة وأجلسه على أحد الكراسي المقابلة له ثم سأله عن اسمه وعمره وعمله ومكان سكنه واتضح أنه يسكن في الطابق الخامس من المبنى الذي تمت فيه الجريمة هو وأخيه الآخر الذي يقطن معه في نفس الشقة ثم قام محمود بتوجيه سؤال له قائلاً:

"ماذا رأيت ليلة الحادث؟"

وبما أنه الرجل الأكثر هدوءًا من الآخر فقد أخذ نفسًا عميقًا ثم بدأ حديثه قائلاً:

"سأحكي لك ما حدث بالضبط وما رأيته في تلك الليلة المشؤومة"

ثم أخذ نفسًا عميقًا آخر وأردف قائلاً:

"في تلك الليلة كان الشارع مزدحمًا على غير عادته بمناسبة افتتاح ذلك المحل وكنت أنا وأخي في طريقنا إلى المنزل عائدين من القهوة كما تعودنا كل ليلة، وفي تلك الليلة بالذات أصاب أخي الإعياء واضطررنا إلى المغادرة مبكرًا وفي طريقنا على السلم وجدنا شقة الحاج إسماعيل مفتوحة"

"وكم كانت الساعة؟"

– حوالي الساعة التاسعة مساءً.

فقال وكيل النيابة متسائلاً:

"وهل هي عادة طبيعية يقوم بها الحاج إسماعيل، أقصد ترك الباب مفتوحًا؟"

فهز رأسه نافيًا وهو يقول:

"لا، لا يا حضرة وكيل النيابة، إنها المرة الأولى التي نجد فيها الباب مفتوحًا وهذا ما لفت انتباهنا وأثار الشكوك داخلنا وجعلنا نمضي في طريقنا إلى داخل الشقة وخصيصًا أننا نعلم أن مدام صفاء لا تمكث في المنزل كثيرًا في الفترة الأخيرة"

فانحنى وكيل النيابة على المكتب يرسم شيئًا في أحد الأوراق أمامه ناظرًا إليه ثم قال:

"وما أدراك بذلك؟!"

قال ملوحًا بيديه بنية الشرح:

"كلنا نعلم ذلك في المبنى وفي الشارع بأكمله بأن الحاج إسماعيل أوكل إليها بعض الأعمال في محاله المختلفة بعد أن أصابه المرض وتمكن منه في الفترة الأخيرة"

– وماذا بعد ذلك؟

– دخلنا ونحن ننادي على الحاج إسماعيل وفجأة وفي وسط النور الخافت في المنزل انتبهنا لوجود جسد ممدد على الأرض، كنا نظن أولاً أنه الحاج إسماعيل وربما أصابه الإعياء وهو يحاول طلب النجدة من الجيران وربما أن الحظ لم يسعفه.

– وهل سبق وأن طلب الحاج إسماعيل المساعدة قبل ذلك؟

– نعم، مرة واحدة على حد علمي.

– وهل تعلم من ساعده في تلك المرة؟

– صراحة لا أعلم، ولكنني علمت فقط أنه طلب النجدة ولكنني لم أهتم بماهية من ساعده.

أومأ محمود برأسه متفهمًا ثم قال:

"أكمل"

استطرد الشاهد أقواله قائلاً:

"وعلمنا أنها جثة كريم وهذا ما أصاب أخي بالصدمة مما جعله يصرخ، ولكنني تمالكت أعصابي ودخلت إلى الشقة باحثًا عن الحاج إسماعيل في غرفته"

وسرعان ما قال محمود بنبرة مريبة:

"وهل تعلم مكان غرفته؟"

فقال وهو يتلعثم:

"لا ...، نعم أعلمها فقد زرته مرات عديدة من أجل أمور مختلفة ونحن جيران أولاً وأخيرًا"

فقال محمود وهو يكتب شيئًا:

"وماذا رأيت؟"

– رأيت الحاج إسماعيل دون حراك ممدًا على الأرض والدماء تسيل من حوله.

– وهل أنت متأكد أنه الحاج إسماعيل وليس شخصًا آخر؟

– بالطبع، فلقد كنت قريبًا بما يكفي لأعلم ذلك.

– ما الذي دعاك للجزم بأنه ميت، فربما كان مغشيًا عليه؟!

- لم أقترب منه خائفًا من أن يُدَس أنفي في تلك القضية أو أُتهم بقتله وأنا لا أتحمل شقاء ذلك، ولكنه بدا لي ميتًا وما أكد لي وفاته هي أثار الدماء المنتشرة حوله فقد كان ينزف بغزارة.
- هل لاحظت وجود آثار تنم عن العنف أو شجار بالشقة؟
- لقد كانت الإضاءة شبه منعدمة و لم أنتبه من هول الصدمة.
- هل رأيت شيئًا آخر في الغرفة؟

فتعجب الشاهد وبدا غير فاهم فأردف محمود موضحًا:

"أقصد ألم تلاحظ أي شيء غريب في الغرفة لم تعتده بما أنك زرته عدة مرات؟"

فنكس الشاهد رأسه لدقيقة إلى الأرض ثم نظر لوكيل النيابة وكأنه يحاول استرجاع تلك الليلة في ذاكرته وقد بدا أنه تذكر شيئًا ولكن سرعان ما قال:

"لا، لم أر شيئًا غريبًا"

فقال له محمود وهو يهم بطلب رجل الأمن الجالس في الخارج:

"تفضل بالتوقيع على أقوالك وإن احتجتك سأستدعيك إن كان الأمر لا يزعجك"

فقال الشاهد بنوع من المثول للواقع وهو يوقع:

"تحت أمرك"

فقال محمود لرجل الأمن بينما هم الشاهد الأول بالخروج:

"ادخل الشاهد الثاني"

[٢]

في تلك اللحظة كان حسين يقبع خارج غرفة التحقيقات واقفًا وقد ملأه التوجس والقلق ينظر لكل أفراد الأمن المارين في الطرقات من حوله برهبة تامة، ينظر إليهم متصورًا أنهم يعرفونه جميعًا حتى أحيانًا عند اقتراب أحدهم منه كان يصاب بالرعشة فيتكور في مكانه مرتعدًا وكأنهم سيمسكون به ويزجون به في السجن، بدا وجهه شاحبًا للغاية وكان يدخن على غير عادته فقد كانت يده مرتجفة لا تستطيع حمل السيجارة وظلت نظراته تحاول الهروب من أعين رجال الأمن الذي شعرهم أحيانًا كالوحوش الضارية التي تحاول النيل من فريستها ووسط كل ذلك سمع صوتًا يقول:

"أنت التالي"

فتنبه في تلك اللحظة أن دقائق تفصله عن مقابلة وكيل النيابة الذي سيقرر مصيره فتجشأ الخوف ناظرًا إلى رجل الأمن الذي أخبره بذلك ولكن لم يصدر منه أية ردة فعل واكتفى بالنظر إليه وسرى في ذهنه أمر واحد:

"إنه لم يفعل شيئًا وما مر به لم يكن أكثر من كابوس وعليه فقط أن يخبر وكيل النيابة بأنه لم ير شيئًا وليحتفظ بكوابيسه لنفسه وإلا اتهموه بإزعاج السلطات"

وفي هذه اللحظة وداخل غرفة التحقيقات كان وكيل النيابة يقول للشاهد الثاني الذي ملأ وجهه الارتباك والخوف:

"هل شاهدت الحاج إسماعيل في تلك الليلة؟!"

قال متلعثمًا من الخوف:

"لا... لا لم أره في تلك الليلة ولكن أخي أخبرني بخبر موته عندما تركنا المنزل فزعين لنبلغ الشرطة بالحادث"

- متى كانت آخر مرة شاهدت فيها الحاج إسماعيل قبل الحادث؟
- قبل يومين تقريبًا وكان متجهًا إلى سيارته بصحبة زوجته والسائق الخاص.
- وهل بدا عليه الإعياء؟
- الحاج إسماعيل مريض منذ حوالي السنة تقريبًا ويرقد بالمنزل معظم أيام الأسبوع"

رسم محمود شيئًا على نفس الورقة الملقاة أمامه ثم نقل طرفه إلى الشاهد قائلاً:

"ما علاقتك بكريم وماذا تعرف عنه؟"

نظر له نظرة خائفة ثم قال بحذر:

"إنه... إنه ليس أكثر من جارنا وهو منطوٍ على نفسه لا يتحدث إلى أحد كثيرًا"

سكن للحظات وقد وضح عليه التردد ثم أردف قائلاً بخوف:

"كما أنه سكير يعود كل ليلة مترنحًا ودائمًا ما ينقر الباب الخطأ حين عودته للمنزل وحدث ذلك معنا كثيرًا وكنا نعينه على الوصول إلى شقته"

رسم محمود شيئًا آخر في ورقته ثم قال وهو يحدد طرفًا في الشاهد:

"هل لاحظت أي شيء ليلة الحادث؟"

- لا لم ألاحظ شيئًا فلقد كنت متعبًا للغاية وكذلك كنت مصابًا بالصدمة والارتباك من هول ما رأيت.

فقال محمود بنبرة آمرة قوية:

"وماذا رأيت؟"

- رأيت كريم ممددًا على الأرض والدماء تسيل منه والزجاج المتكسر وكذلك السجادة القابع عليها كانت تدل أن هناك شجارًا عنيفًا قد نشب.

فقال محمود متحمسًا:

"وهل تظن أن هناك شجارًا قد حدث؟"

- أظن ذلك، فالأمر لا يحتاج للتركيز لمعرفة ذلك.
- هل سبق وأن حدث شجارٌ بين الحاج إسماعيل وكريم أو أي فرد أخر؟

فنظر له الشاهد طويلاً ثم قال:

"لا، لم يسبق أن رأيت أو سمعت عن شيء كذلك، فلقد كان الحاج إسماعيل رجلاً محترمًا للغاية"

انقبضت أسارير الشاهد في تلك اللحظة وقد بدا عليه الخوف والهلع فقد شعر بأنه تمادى في ذكر بعض الحقائق التي ربما ستجعل النيابة تشك به طبقًا لتفكيره، فهو لم يتصور يومًا ما في قرارة نفسه أنه سيجلس أمام أحد رجال القضاء شاهدًا في جريمة قتل رآها بعينيه وخلال تلك اللحظات القصيرة كان محمود ينقل طرفه من الأوراق أمامه إلى الشاهد ثم قال محمود بهدوء شديد:

"الآن وقع على أقوالك وتستطيع أن تنصرف، ولكنني سأحتاجك فيما بعد"

وقع الشاهد وخرج من الغرفة دون أن ينبس ببنت شفة مرتبكًا، ولكن

لا يخلو قلبه من بعض الارتياح لانصرافه من أمام وكيل النيابة الذي يملك شخصية تربك من يجلس بصحبتها.

وفي تلك اللحظة نادى رجل الأمن في الخارج قائلاً:

"الشاهد التالي"

[٣]

- أهلاً سالم، كيف حالك؟
- الحمد لله، أنا بخير حال.
- لِمَ لم تأت هذا الصباح؟، يبدو أنك نمت كثيرًا بعد الليلة الماضية.
- نَوم، ومن أين يأتي النوم؟!، فأنا لم أبارح مكتبي منذ الأمس أفكر بجريمتنا وأقوم بعمل دراسة ورؤية أولية لتلك الجريمة.

أشعل في تلك اللحظة سيجارة حيث سمع محمود ذلك على الهاتف فانتظر إلى أن ينتهي بينما أردف سالم قائلاً:

"هل تتذكر جار الجثة المفقودة الذي تمت مقابلته بالأمس؟"

وجاءت الإجابة سريعًا من محمود:

"لم أنسه لأتذكره"

فابتسم سالم وهو يطيح بالدخان مستخدمًا زفيرًا قويًا قائلاً:

"وهل لاحظت ما لاحظته؟"

فقال محمود وهو يبتسم:

"لتقل لي أنت أولاً ماذا لاحظت؟!"

- لاحظت وأنا أعود بذاكرتي للأمس ووسط الأحداث السريعة حينما كنا نستجوب جارنا العزيز أن بيده جرحًا ما حيث حاول أكثر من مرة أن يقبض يده على الجرح ولكن الإسعافات التي استخدمها رديئة

للغاية حيث أنه حاول أكثر من مرة إخفاء يده خلف الباب وهو يمسكه بيده المصابة، ولكنني لا أعلم لِمَ لم أنتبه سوى الآن، يبدو أن افتقادي للنوم هو السبب في ذلك.

فقال محمود وكأنه يحاول إثارة عقل سالم قائلاً:

"ألم تلاحظ شيئًا آخر؟"

فساد الصمت للحظات وكان سالم في هذه اللحظة ينظر إلى سماء غرفة مكتبه وقد انتشله التفكير من مكالمته وفجأة جاء صوت محمود مقاطعًا لأفكاره:

"أولاً كان هو أول من تكهن حينما أخبرناه بوقوع حادث قتل و لم يتكهن سوى بمقتل الحاج إسماعيل علمًا بأن حادث القتل كان ممكن أن يحدث لمدام صفاء ورغم ذلك لم يتكهن سوى بمقتل الرجل دون المرأة، كما أنه عندما فتح الباب كان يوجد نقطة دماء حديثة على بنطاله الذي بدوره لا ينتمي لأي نوع من ملابس النوم، فصديقنا العزيز كان مازال مرتديًا ملابس أنيقة لا تليق بالنوم"

فتجشأ سالم المفاجأة ثم قال متعصبًا:

"ولماذا لم نقبض عليه في الحال؟"

فابتسم محمود:

"إن القاتل عندما يقتل فإن أول ما يفكر به هو الفرار ولكن في حالتنا تلك إن قاتلنا مختلف للغاية وغير ملم بالجريمة حيث بدا لي أن الجريمة ليست في دمه فمن خلال علم النفس أرى أنه الكبت أحيانًا يقود للجريمة كنوع من الهروب وهي حالة نفسية تعرف بالفوجا ولكنها في حالتنا مختلفة للغاية، ولا تنس أن كل ذلك مجرد تكهنات غير مؤكدة وربما أنه جرح من شيء آخر وربما نومه بملابس أنيقة هي عادة لديه، فأنا لا أستطيع الجزم الآن بأنه القاتل ولا تقلق فهو حاليًا يقبع خارج غرفتي للمثول للاستجواب وهذا ما يدعم تكهناتي"

فقال سالم وهو يطفئ سيجارته:

"ربما لم يجد الوقت الكافي ليهرب"

فقال محمود مبتسمًا:

"لا أظن، فإن الوقت كان كافيًا للهروب من وقت ارتكاب الجريمة إلى اكتشافها"

- أرى أن خوفه الرهيب هو ما منعه من الهروب.

فابتسم محمود قائلاً:

"هناك نوعان من الخوف، خوف يدفعك للفرار، وخوف آخر يعمل على شل التفكير والحركة، وكما ذكرت لك إنها حالة خاصة"

فأومأ سالم رأسه متفهمًا ثم قال:

"سآتي إليك في الحال، أوه بالمناسبة لقد أرسلت لك تقرير المباحث، تبًا للنسيان"

فابتسم محمود قائلاً:

"لا عليك، بالتأكيد سيصل خلال دقائق"

ودُعه محمود على الهاتف حيث أمر رجل الأمن في الخارج بأن يجعل الشاهد ينتظر قليلاً عندما باغتته مكالمة سالم وخلال تلك المكالمة كان حسين يحدث نفسه في ذعر كامل يشعل سيجارة تلو الأخرى ولا ينهي أيًا منها قائلاً:

"لماذا تركني بالخارج وأجّلني فيما بعد؟! وما الذي يشغله عني؟! هل علم شيئًا؟! هل شاهدني أحد وأخبره الآن؟! وإن كان أخبره فلم لا يتم القبض علي الآن وأنتهي من ذلك كله؟! هل يتوجب علي الهرب الآن؟! ولكن إن جريت سيعلمون أنني القاتل؟! أو لم يعلموا بالفعل ويتلاعبوا بأعصابي؟! بئسًا لرجال القانون وبئسًا لهذه الألاعيب الشريرة. وظل هكذا تتآكله الهواجس والأسئلة

ولكن دون أن يتقدم خطوة واحدة لفعل أي شيء، نعم فلا مناص الآن إلا المثول أمام وكيل النيابة أو ربما حبل المشنقة، فقـد يكون هروبه هو الدليل الوحيد، فلا ملجأ الآن من الانتظار.

وفي هذه اللحظات نادى رجل الأمن مرة أخرى قائلاً:

"الشاهد التالي"

شعر حسين في تلك اللحظة أن الحياة قد عـادت إلى جسده المتهالك فأطفأ السيجارة واتجه نحو الغرفة...

[٤]

في تلك اللحظة كان محمـود يتابع عن قصـد بعـض الأوراق أمامه، حيث كان يتوسط مكتبه بعض الرسومات التي قام برسمها بالقلم الرصاص بينما بدأ بقراءة إحـدى الورقات القابعة أمامـه التي أعطاها له رجـل الأمن منذ لحظات حين أذن لحسين بالدخول وفي هذه اللحظة دخل حسـين الذي حاول جاهدًا رسم ابتسامة باهتة للغاية ثم أومأ برأسه قائلاً:

"السلام عليكم"

فصعد محمود ببصره فيه ببطء ثم قال دون اهتمام وبنبرة جادة:

"تفضل"

ثم سرعان ما غض بصره ثانية مطالعًا أوراقه، شعر حسين بأن الرعب المتسلل إليه مستحقًا بما شاهده الآن من محمود الذي لم يعره أي نوع من الاهتمام حيث وضحت عليه الجدية وتغيرت ملامحه تمامًا منذ الأمس مـن رجل جاد إلى رجل جاد جدًا ولكنه حـاول جاهدًا أن يتمالك أعصابه ولكـن دون جدوى وانتظر حسين أن يبدأ محمود تحقيقـه ولكن بلا فائدة فيبدو أن محمـود منغمس في عالم آخر وكأن القضية لا تعنيه ولكن هل يصدق ظنه؟! بالطبع لا.

كان محمود يتابعه دون أن يكتشف حسين ذلـك حيث كان حسين يحاول بأقصى محاولاته ألا تلتقي عيناه بعيني محمـود وذلك ما ساعد محمود في مهمته، وفي لحظـة مفاجأة صعـد محمود ببصـره في حسين وبدون مقدمـات شرع في

إرسال الأسئلة التقليدية عن الاسم والعمر والوظيفة ومكان السكن وما إلى ذلك، وكان حسين في إجاباته متوترًا لحد ما ولكن بالشكل الطبيعي لأي شخص قد يقبع أمام رجل قضاء.

"ماذا تعرف عن الواقعة؟"

بدا حسين متحفظًا للغاية في إبداء إجاباته رغم أنها أسئلة عادية للغاية وكانت عيناه تعانقان الأرض وقلما صعد بطرفه في عيني محمود وعند سماعه للسؤال الأخير قال:

"كما حدثتك بالأمس بأنني لا أعلم شيئًا فلقد كنت نائمًا"

فقال محمود دون أن يكترث إلى كلماته:

"كم كانت الساعة حينما ذهبت إلى فراشك؟"

- حوالي الساعة السادسة والنصف.

أومأ محمود برأسه متفهمًا ثم قال:

"ألم تسمع أي نوع من الضوضاء بالأمس في الطابق الذي تقطن فيه خلال نومك؟"

قال حسين بصوت منخفض متحفظ:

"لا لم أسمع وكيف أسمع وكل تلك الضوضاء تعم الشارع بمناسبة افتتاح أحد المحال؟!"

فقال محمود مباغتًا:

"إذن كيف استطعت النوم في ظل تلك الضوضاء؟"

فتعثر حسين وتوقف للحظة ثم قال:

"أنا... أنا معتاد على النوم في أي مناخ كما أنني كنت متعبًا للغاية"

فقال محمود وهو يقوم من مجلسه متجهًا نحوه:

"وهل التعب أنساك جرحك الدامي؟!"

ثم سكن للحظة ثم أردف بهدوء واثق:

"أو لم يؤرق نومك ذلك الجرح؟!"

فقال حسين وهو يلمس جبهته مرورًا برأسه:

"لم يكن أكثر من حادث بسيط خلال إعدادي للطعام"

ثم باغته محمود ثانية قائلاً بحدة:

"وهل أنت معتاد على النوم بملابس أنيقة؟"

ولم يحر حسين جوابًا ولكن بدا العرق يتصبب منه ثم أردف محمود قائلاً حيث بدا هادئًا أكثر:

"لماذا أجزمت بمقتل الحاج إسماعيل إن كنت لا تعلم شيئًا ولم تسمع شيئًا؟! ولماذا لم تجزم مثلاً بمقتل مدام صفاء؟!"

فجحظت عينا حسين الذي بدا منهارًا للغاية محاولاً بكل الطرق التملص من كل تلك الأسئلة ولكن بدا أنه أخرس ينظر بعيدًا عن عيني محمود التي تواجهه بقوة وانقبضت أساريره وتجشأ كل معالم الخوف وصدرت تأوهات داخلية أصدرت أزيزًا وتململ في مكانه منكمشًا مرتعدًا ولم يحر جوابًا وسمع محمود يقول ببرود تام وثقة:

"إن كنت لا تحمل تفسيرًا واحدًا لكل ما سبق فما هو تفسيرك لنقاط الدماء التي سقطت على بنطالك حديثًا إن كان الجرح قديمًا؟"

فانهار حسين وشعر بدوار وكأن الأرض تميد من تحته وشعر بأنه قد أُلجم تمامًا فحاول أن يجد الكلمات مرارًا ولكن دون جدوى وامتلأت مدامعه ولكن أبت السقوط وأخلد في لحظات إلى عالم آخر حيث رأى نفسه يقبع أمام حبل المشنقة وهو مصيره المحتوم فلم يخالج تفكيره ولو للحظة أن الأمر سينقضي

بتلك السرعة، وهنا سمع محمود يقول بصوت واضح انتزعه من إكمال تصور مشهد نهايته:

"أمرنا نحن وكيل أول نيابة محمود عبد الكريم بالتحفظ على المتهم حسين يسري مدة أربعة أيام على ذمة التحقيق كما أمرنا بتفتيش شقة المذكور"

ثم جاء رجل الأمن واصطحب حسين خارج الغرفة بعد أن أمره محمود بذلك، وهنا قام محمود برفع سماعة الهاتف للاتصال بسالم الذي كان يقود سيارته وهنا قال محمود:

"يبدو أننا أمسكنا بالقاتل"

فقال سالم:

"بالكاد إنه جارنا العزيز"

أخلد محمود إلى الصمت مفكرًا للحظات ثم قال:

"لا أعلم ولكن حتى الآن أشك في أمور عديدة وسأطلعك عليها ولكننا في انتظار تقرير الطب الشرعي حيث سيكون إفادته لنا كبيرة في هذه المسألة كما أننا حتى الآن لا نملك سوى جثة واحدة، فأين ذهب الحاج إسماعيل؟! هذا هو السؤال الأهم الآن وقد تعمدت عدم سؤال حسين عن الجثة لسبب يختلج في صدري"

أومأ سالم برأسه موافقًا ثم قال متسائلاً:

"ولكن ما الذي جعلك تدين حسين بتلك السرعة؟!"

تقرير المباحث الجنائية.

- إم، وما الدلائل التي أتت فيه جعلتك تقدم على ذلك بتلك السرعة؟

بدأ محمود بقراءة جزء من التقرير:

"قد تبين لدينا أن الباب لم يفتح عنوة ولا توجد أية آثار لكسر الباب أو

الاقتحام، وقد اتضح اختفاء مصوغات ذهبية تخص زوجة صاحب المنزل بعد اصطحابها صباحًا إلى مسرح الجريمة"

تعجب سالم للحظة بعدما أنهى محمود كلماته قائلاً:

"ولكنني لا أرى أي دليل قد يزج بأقدام حسين في القضية!"

فقال محمود بهدوء:

"بالعكس يا صديقي، إن الدخول دون آثار للكسر أو الاقتحام عنوة تدل على أن القاتل ليس غريبًا عن المنزل وربما يتردد على المنزل كثيرًا وهذه أول الخيوط التي فكرت بها خلال تحقيقي مع حسين، وبالفعل قد سقط في بداية التحقيقات والآن سأقوم بإصدار إذن بتفتيش منزل المتهم وعليك أن تأتيني سريعًا حتى ننتهي من تلك القضية بأقصى سرعة ممكنة"

- سآتيك في الحال، مع السلامة.

- مع السلامة.

[٥]

"سنبدأ تحقيقنا مدام صفاء"

كانت تلك هي الكلمات التي أخرجها محمود إلى الفراغ الفاصل بينه وبين مدام صفاء حيث استكانت على المقعد المقابل له وقد حاصر ملامحها الوجوم وقد ارتدت الأسود ولكنه أسود أنيق للغاية، وسرعان ما أومأت برأسها بالموافقة بتؤدة وحزن دون أن تنطق بكلمات وشرع محمود في إلقاء أسئلته التقليدية ومن ثم جاءها السؤال التالي:

"هل كان للحاج إسماعيل أعداء؟"

أخلدت إلى الصمت للحظة ثم قالت:

"إن الحاج إسماعيل تاجر وكما تعلم أن عالم التجارة لا يخلو من المشاكل ولكنني لا أظن أن مشاكل التجارة قد تؤدي إلى القتل"

نظر لها محمود متأملاً لوهلة ثم قال:

"كم قيمة المصوغات المختفية؟"

- تقدر بحوالي سبعون ألف جنيه.
- منذ متى وأنت متزوجة من الحاج إسماعيل؟
- منذ حوالي سبع سنوات.
- خلال تلك السنوات، ألم ينشب بينكما أي شجار أو عراك؟

صعدت بنظرها فيه بسرعة وقد احتدت ملامحها وبزغ منها بعض الغضب قائلة:

"ماذا تقصد بسؤالك؟ أرى أنك تخفي شيئًا وراءه؟ هل تتهمني بقتل زوجي؟"

صمت محمود ناظرًا لها طويلاً في ثبات بينما غضت هي ببصرها لتنظر أمامها وقد احتدمت ملامحها قائلة:

"كنا...، كنا مثل أي زوجين، حياة طبيعية"

سكنت لبرهة ثم أردفت قائلة بحزن وصوت متقطع من البكاء:

"لا أعلم لم أنتم يا رجال القانون لا تحترمون أي مشاعر؟! بل تنغمسون في جرح الضحية وتتركون الجاني يسعد بحريته؟!"

ابتسم لها محمود ابتسامة ودودة ثم قال:

"مدام صفاء، نحن هنا نجري تحقيقًا قانونيًا واعلمي أن جميع أسئلتي لمصلحتك وليست ضدك على الإطلاق، وأنا أقدر تمامًا ما تمرين به، ولكن علينا أن نحصل على الحقائق التي تساعدنا على الوصول للحقيقة"

قدح زناد الفكر ونظر برهة لمدام صفاء التي بدت له هادئة ثم قال:

"ما هي علاقة كريم بزوجك؟"

شردت طويلاً وكان شيئًا عالقًا في مخيلتها يتردد أمام عينيها ثم بعد وهلة قالت:

"لم تكن أكثر من علاقة جار بجاره"

- وماذا تعلمين على كريم؟

ردت بسرعة قائلة:

"لا أعلم شيئًا سوى أنه جارنا، فأنا لا أهتم بمثل تلك الأمور"

- وماذا عن حسين جاركم؟

نقلت طرفها له ثم قالت بتعجب:

"ماذا عنه؟!"

- ما علاقته بكم؟
- إن حسين جارنا رجل محترم و لم نر منه شيئًا سيئًا، كما أنه أكثر الجيران انضباطًا في كل شيء، كما أنه لا يتحدث كثيرًا.
- هل قام بزيارتكم في الفترة الأخيرة؟

سكنت للحظات وكأنها تتذكر شيئًا ثم قالت:

"نعم قبل أمس، كان يزورنا ليطمئن على زوجي وانصرف سريعًا، فهو خجول للغاية بطبعه"

- متى تركت الشقة بالأمس؟
- حوالي الساعة الثامنة.
- هل تتهمين أحدًا بعينه فيما حدث؟

نقلت طرفها ناظرة طويلاً للأرض ثم أومات برأسها بالنفي قائلة:

"لا"

ابتسم محمود لها قائلاً:

"لقد انتهيت وتستطعين الآن أن توقعي على أقوالك"

وهنا قامت صفاء بالتوقيع حيث بدا لمحمود أن يدها مكتظة بالمصوغات الذهبية، وانصرفت على مهل وفي تلك اللحظة دق جرس هاتفه الخلوي فانتشل محمود الهاتف من صراخه حيث وجد صوت سالم يقول:

"أنا في طريقي إلى شقة المتهم"

الفصل الرابع

[١]

كانت صفاء تسير على تمهل وتـؤدة وقد بدت أكثر إشراقًا من ليلتها الأولى المحملة بالدماء والأسئلة وقد كان الجو مساعدًا لذلك بالتأكيد؛ حيث توسطت الشمس السمـاء دون رغبة من محاولة السحب لإيقـاظ جموحها في الاستيلاء على حصتهـا الشرعيـة في فصلها الطبيعـي وهو فصـل الشتـاء، وكان النسيم عليلاً رطبًا يحمل جزءًا من الـبرودة الرقيقة التي تداعب خلايـا الجسد فتجعله في اطمئنان وخفـة روحانية، وانطلقت تعـدو الشوارع حتـى وصلت لمكان سيارتهـا واستوقفها أمام السيارة صـوت أزيز هاتفها الـذي حولته إلى الوضع الصامت حتى لا يعترض التحقيق معها أي صوت.

وحين التقاطها للهاتـف كان قد توقف عـن إصدار أزيزه الـذي بدا وكأن أحدهم قد سيق مكمم الفاه معصوم الكلام محاولاً الاستجداء بمن ينقذه، نظرت إلى الشاشة الإلكترونية لتجد أن هناك ما يقارب ثلاثين اتصالاً لم تكن على علم بهم، ثم بـدأت في تقصي الأرقام المتصلـة بها وقد بـدا أن المتصل لم يكن سوى رقم واحد وصاحب ذلك الرقم لم يصبه أي نوع من الملل، ثم عملت على قدح زناد الفكر لبرهة حيث شاحت بوجهها بعيدًا عن شاشة الهاتف ثم سرعان ما أن ولجت إلى السيارة وانطلقت بها.

وفي الطريق كانت تستطلع من خـلال المرآة أن تلاحظ هل هناك من يتعقبها محاولاً مراقبتها أم لا، وقد ملأها القلـق والتوجس ثم وصلت إلى منزلها البسيط القديم حيث قـررت المكوث فيه حتـى تنتهي أحـداث القضيـة، وكان المنزل

خاويًا على عروشه و لم يدخله أحد منذ زواجها من إسماعيل حيث يعود المنزل لزوجها الأول الذي حصلت عليه منه بعد طلاقها.

جلست في أحد الأركان بعد أن دارت ببصرها في أركان المنزل وكأنها تتأكد من عدم وجود شيء يثير قلقها، ثم قامت بالإمساك بهاتفها البرهة دون أن تفعل به شيئًا وقد لاحق عينيها التوجس والقلق وكلما أرادت الاتصال طأطأت رأسها مستنكرة الفكرة، ولكنها أخيرًا استعادت جموح وقوة جأشها وقامت بالاتصال وظل الهاتف يدق لأول مرة دون رد فازداد توجسها وقلقها خوفًا وسرعان ما حاولت الاتصال مرة أخرى ومع أول دقات الهاتف الآخر سمعت صوتًا يقول متلهفا مفزوعًا:

"أين كنت؟!"

- في النيابة يحققون معي

أخذت نفسًا عميقًا مطمئنًا وكأنها قد شعرت بالارتياح من شيء ما ثم قالت وهي تزفر وقد بدت وكأنها رميت شيئًا عن كاهلها:

"لقد ارتعبت كثيرًا؛ لأنك لم ترد في المرة الأولى"

- لقد كنت في دورة المياه ليس إلا، وعندما دق صوت الهاتف في المرة الأولى جئت مهرولاً ولكن وصلت متأخرًا حيث أغلقت بدورك الهاتف وعلمت أنك ستتصلين مرة أخرى، المهم في ذلك أطلعيني على الأحوال؟ وكيف سارت؟

- كل شيء كان عاديًا ولكن سؤالاً واحدًا حيرني من وكيل النيابة ذلك الذي بدا لي غير مطمئن بالمرة ونظراته التي يشوبها الشك في كل شيء.

صمت صاحب الصوت لثوان ثم قال:

"هل تظنين أنه يشك بك بأنك قد تكونين أحد فروع تلك القضية؟"

ساد الصمت للحظات أخرى من كلا الطرفين ثم عادت صفاء تقول وكأنها تنفض الشك عن عقلها قائلة:

"بالتأكيد هو يشك في كل شيء، ليس فقط فيَّ وحدي، فأنت كما تعلم هؤلاء هم رجال القانون وخصوصًا إن تعلق الأمر بقضية كهذه، ولكن كل ما كان يهمني أن أستبعد من عقله فكرة تورطي بالقضية"

قالتها وهي تضحك بسخرية ثم أردفت قائلة بعد أن انفصلت ابتسامتها عنها فجأة:

"ولكن هناك شيئًا غريبًا حدث"

فتطلع صاحب الصوت المقابل إلى تلك الجملة قائلاً على استعجال ولهفة:

"وما هو ذلك الشيء؟!"

- لقد سألني عن حسين جارنا المنطوي، ولا أعلم ما سر سؤاله أو ما ارتباطه بما حدث؟!

فسكن الصوت لبرهة ثم قال:

"هذا طبيعي أن يتم سؤالك عن جميع سكان المبنى"

- ولكن بدا لي هذا غريبًا بعض الشيء!

- لا تنسي أنه يقطن في نفس الطابق الذي تقيمان فيه، ومن البديهي أن يسألك عنه.

- فهمت.

ساد الصمت للحظات ثم قالت صفاء بصوت خفيض وكأنها تحاول ألا يسمع أحد صوتها:

"رغم حزني على إسماعيل إلا أنني أشعر بالتحرر من كل شيء وقد حان الوقت لأعيش كما يجب، بعد أن ذهبت سنوات حياتي سدى، بعد أن ذهبت

في عمليات التمريض المرهقة من أجل إسماعيل، حان الوقت لأعيش كما يجب ولكن علي الانتظار"

فجاءها الصوت سريعًا قاطعًا يقول:

"ولكن حتى الآن لم تظهر جثة إسماعيل وهذا شيء يدعو للقلق"

فتملكها القلق والحيرة ونكست رأسها لدقيقة تفكر ثم قالت:

"وماذا في ذلك؟!"

"لا أعلم ولكن على حد علمي أنه لا يمكنك التمتع بأي شيء طالما أن جثته مفقودة حيث أن القانون لا يعد أحدهم ميتًا إلا بوجود جثته"

فانتابها الهلع والغضب قائلة بصوت عالٍ مكتوم يملأه الحذر:

"هل تعني بكلماتك تلك أنني لن أحصل على شيء إلا بظهور جثته؟!"

سكن الصوت للحظة ثم قال:

"أظن ذلك"

فقالت مستنكرة بحدة وبصوت أشبه بالصراخ:

"لا مستحيل، لابد أن هناك حلاً ما"

- صدقًا لا أعلم، ولكن هذا ما أعلمه عن ذلك الأمر.

- هذا يعني أنني سجينة وتحرري مرهون بظهور الجثة.

ولم يحر الصوت جوابًا ثم أردفت قائلة وكأنها تهذي:

"أي حظ ذلك"

وسرعان ما انتبهت لشيء ما وكأنه قد غاب عنها وعن محدثها وجحظت عيناها، وانتابها الخوف والهلع ثم قالت بصوت متقطع:

"إن... إن كان كريم وإسماعيل قد تقاتلا حسب ما أجزمنا سلفًا، وقد تم قتل إسماعيل بالفعل فمن نقل جثة إسماعيل؟! ولماذا نقلها؟! وما الذي سيستفيد به بتلك المخاطرة؟!"

صمت الصوت للحظات وكأنه يفكر ثم قال:

"علينا فقط أن ننتظر تقرير الطب الشرعي الذي سيفك شفرات العديد من الألغاز، وعلينا أن نكون هادئين فربما تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن من جراء توترنا ولذلك علينا أن نخلد إلى الهدوء الآن وألا نفكر كثيرًا، فالأمر قد يبدو لنا معقدًا الآن، ولكن سرعان ما سيفتضح كل شيء وتظهر لنا بواطنه التي ترهقنا الآن"

حاولت صفاء جمع جنبات الرضا داخلها واستحال صوتها من الفزع إلى الهدوء المتوتر ثم قالت:

"نعم، أنت محق، وعلينا أيضًا أن نتوخى الحذر في كل شيء، حتى ننتهي من ذلك الأمر"

- بالتأكيد

أغلقا الهاتف وعادت صفاء تفكر في هدوء، ولكن لم تكن تفكر في الجريمة وإنما كانت تفكر في حياتها البائسة والفقيرة في الأيام التي سبقت زواجها من إسماعيل، وكيف كان الحال معها؟ فلقد كانت أيامًا نكرة لم ترَ فيها سوى العذاب والألم من قبل أهلها فيما قبل زواجها الأول ولم تكن تستطيع أن تعارضهن في شيء حتى في زواجها الذي لم يمنحها بدوره سوى العذاب والألم فتحولت من إنسانة تأمل بالحياة إلى إنسانة تكره الحياة ومقت رجالها بل أناسها جميعًا، شعرت بأن كبتها وكبت أنوثتها يخرج حينما تزوجت من إسماعيل، ولكنها فوجئت بأنه أنانيٌّ في حبه غيورٌ، وشعرت أيضًا بأنه يُشْعِرها بالتملك وليس كإنسانة، فازداد كبتها في دواخلها... وبعد تفكير طويل استحوذ عليها النعاس وهي ممتدة على أريكتها دون أن تدرك.

[٢]

في هـذه اللحظـة كان أفراد المباحـث الجنائيـة في تفتيـش دؤوب في شقة حسين، وكان – سالم – في تلك اللحظـة يتطلع إلى أنـواع الكتب التي يملكها حسين في منزله، وقد تعجب كثيرًا لما رآه من روايات رومانسية ودرامية لأشهر الكتاب حيث اتضح له أن صاحب تلك الكتب هـو شخصية مثقفة للغاية وقد زاغ تفكيره في حياة ذلـك البائس الذي يقبـع خلف القضبـان والذي أودى بحياته لسبب ما، وفي هذه اللحظة بدا سالم غير متأكد من نوايا ذلك القاتل.

اتجه إلى غرفة النوم ليجد في أحد الأدراج صـورًا عديدة لحسين في طفولته وصباه وقد لاحظ أن إحدى الصور التي يوجد بها حسين قد قطع نصفها وكان حسين انتشل من كان يقف بجواره في تلك الصـورة، وبدا سالم غير متأكد من ملامح ذلك الشخص حيث لم يبد منه سـوى أطراف يده المتبقية، وهنا هم سالم بوضعها في أحد جيوبه وفجأة دخل عليه أحد أفراد الأمن وبيده لفافة ما ويظهر منها طرف لامع ملطخ بالدماء قائلاً:

"لقد وجدنا هذا يا سيدي"

فنظر لها سالم طويلاً ثم جاء بمنديل من أحد جيوبـه وأمسك اللفافة دون أن يلمس الجانب الحاد منها والملطخ بالدماء، ونظر إلى ذلك الجانب طويلاً ثم تبين له أنها قطعة زجاج فتفحصها بنظرة لثـوانٍ ثم تخيل الجريمة لبرهة وما حدث ثم قال وكأنه يحدث نفسه بصوت خفيض متعجبًا حيث ملأه الشك:

"هل معقول أن قاتلاً ما يجهز لتلك الجريمة بهذا الشـكل تكون أداته مجرد

قطعة زجاج؟!، ولكنه في الليلة السابقة كان هادئًا رغـم توتره الطبيعي كما أن ردة فعله جراء معرفته بمقتل الحاج إسماعيل لم تكن في محلها أو كما يجب، يبدو أن كل شيء متناقضٌ!، ولكن ما هو الدافع وراء تلك الجريمة؟!"

ثم اتجه بناظريه إلى رجل الأمن الماثل أمامه قائلاً:

"أين وجدتها؟"

قال رجل الأمن بحزم مفرط:

"تحت سرير غرفة النوم"

قال سالم وقد رفع حاجبه الأيمن متسائلاً بتعجب:

"ماذا تقصد؟! هل تقصد تحت أحـد الأغطية مثـلاً أو مدسوسة في أركان السرير من أسفل أم ماذا بالضبط؟!"

"وجدتها أسفل السرير ملقاة على الأرض"

فنظر له سالم طويلاً وقد حاصرته الحيرة والتعجب محدثًا نفسه:

"هل يعقل أن قاتلاً ما بكل ذلك الدهاء يـترك أداة جريمته في منزله؟!، وفي مكان مكشوف كهذا؟!، فأنـا لم أتوقع للحظة واحدة أن يكـون حل لغز هذه الجريمة بكل تلك البساطة"

وسرعان ما دخل رجـل آخر من رجال الأمن وفي يده صنـدوق وقد بدا أنه صندوق مجوهرات قائلاً:

"لقد وجدنا هذا الصندوق في دولاب بالخارج في الغرفة الأخرى"

فاقترب سالم مـن الصندوق وأمر رجـل الأمن بفتحه ففتحـه ونظر له سالم طويلاً ثم قال:

"إنه نفس مواصفات الصندوق والمصوغـات التي تم ذكرها من قبل زوجة الحاج إسماعيـل في تقرير المباحث الجنائيـة التي أطلعتنا بفقدانـه وهنا تكتمل

أركان الجريمة، الأداة والدافع، أرى أن قضيتنا قد انتهت عند تلك النقطة وما على مجرمنا إلا الاعتراف بذلك"

أمر سالم رجال الأمن بالتحفظ على الأدلة وانتظاره في الأسفل لبرهة من الوقت وعندما خرج آخرهم بدأ يدور بطرفه في أنحاء المكان مستنكرًا في أعماقه أن تلك القضية قد انتهت وشعر أن هناك شيئًا لا يفهمه ثم أشعل سيجارًا وبدأ في إلقاء الأسئلة على نفسه وهو يشعر بالتوجس والحيرة:

"أي نوع من القتلة ذلك الذي يأتي إلى مقر النيابة دون أن يخفي أداة جريمته وما سعى إليه من خلال القتل؟!، وليس قتل واحد فقط وإنما اثنين على حد اعتقادي؟! وإن كانت الأماكن التي خبأ بها أدوات جريمته تدعى في نظره أماكن أمينة فأي نوع من الحماقة يملكها ذلك القاتل في رأسه؟! لا أدري... أرى أن الأمر غريب للغاية وغير مطمئن!.

اتجه سالم نحو أسفل وقد وضع اثنين من رجال الأمن على باب شقة القاتل ثم اتجه نحو أسفل يفكر ويحلل للوصول إلى حل ما ولكن دون جدوى.

[٣]

جلس محمود على مقعده يفكر ويحلل ما يدور في تلك القضية وينظر إلى الرسومات التي رسمها بيديه أثناء التحقيقات وقد أجزم في أعماقه أن تكهناته مازالت تحمل جزءًا من الغموض وأن كل الحلول التي وضعها برأسه تنقص شيئًا ولكنه شعر أيضا أنه قريب جدًا من الوصول إلى تحقيق ماربه في إغلاق ملف تلك القضية، وكان سالم صامتًا ينفخ الدخان منه بغضب أحيانًا وبحيرة وتوجس أحيانًا أخرى.

وعلى الضفة الأخرى كان حسين يقبع ساكنًا دون حراك مطأطأ الرأس بعد أن انهال عليه المسجونون ضربًا بمجرد أن قبع خلف القضبان ولا يعرف السبب! ولكن يبدو أنها الحال الطبيعية في العالم المنبوذ، علم أن قانون الغابة هو المحرك الرئيسي لكل شيء في هذا المكان وتمنى في تلك اللحظة لو أن يقتلوه حتى يستريح من آلام ضميره الذي بات أكثر إيلامًا من ضرباتهم وإذلالهم القاسي له فكيف يجرؤ المنبوذون من المجتمع على التحكم به بتلك الطريقة؟!

وعاوده فجأة وهو يمسح دماءه مشهد معين من طفولته وصباه وكان نزول ذلك المشهد ومعاودته كنزول الوحي على أحد الأنبياء حيث رأى نفسه وهو يقف أمام والده شبه عاريًا ينتظر العقاب جراء فعل بسيط لم يتعمد فعله على الإطلاق، فلم يكن في تلك اللحظة أكثر من صبي صغير لا يعلم الصواب من الخطأ حيث انهال عليه والده ضربًا بعصا لا يتحملها البالغون أو ممن يملكون

الجسد القوي، تذكر تلك الضربات فبدأ بإغماض عينيه وكأنه يتألم بالفعل مرة أخرى في زنزانته جراء تلك الضربات الآتية من الذاكرة ليس إلا، فإن آلام الماضي أشد قسوة أحيانًا من أي آلام أخرى، وبدأ في التأوه...

"أواه، أواه، أرجوك... أرجوك لا تضربني يا أبي، أنا لم أفعل شيئًا، آه، آه"

وبدأ صوته يعلو في جنبات السجن حتى ضاق به زملاؤه وما كان من أحدهم إلا أن نهره قائلاً:

"اصمت أيها الأحمق"

وقال آخر:

"اصمتي أيتها الفتاة المدللة"

ولكنه في هذه اللحظة يقبع في جزء مختفٍ من ذاكرته لا يراه أحد سواه، وعندما ارتفع صوته أكثر اقترب منه ثلاثة من المساجين وقاموا بضربه وهو صوته يعلو ليس جراء ضربهم ولكن جراء ضرب والده الذي عبر حدود الزمن لينال منه وهو يقبع في زنزانته:

"أواه، أواه، أرجوك لا تضربني يا أبي، فأنا لم أفعل شيئًا، آه، آه"

ثم ما لبث أحد الصامتين من السجناء حتى قام من صمته وقام بضرب الثلاثة بخفة ونهرهم جميعًا وشرع في تهديدهم إن لمس أحدهم هذا المسجون مرة أخرى سينال أشد العقاب وكان يبدو عليه رغم صلابته وقوة بنيته وتوحشه في المعاملة معهم وصوته الغليظ ولحيته الكثيفة غير المنتظمة أنه رجل طيب وما آل إليه هو من فعل الزمن والظروف الظالمة ثم جلس بجوار حسين يمسح له الدماء من وجهه وينظر إلى عينيه التي تحولت إلى عيني طفل في هذه اللحظة:

"لماذا لا تدافع عن نفسك؟"

نظر له حسين وكأنه بدا في الاستفاقة وقد تململ في مكانه مرتعدًا وكأنه في

تلك اللحظة فقط خرج من عالم الذكريات ليقابل مصيره المجهول ونظر إلى الرجل القابع أمامه وفي عينيه نظرة الشفقة التي لم يرها منذ دخوله إلى هنا حيث تجاهل الأمن صرخاته وهم ينهالون عليه ضربًا ثم قال بصوت خائف متردد:

"هل ستقوم بإيذائي؟"

فابتسم الرجل ابتسامة خفيفة تنقل الطمأنينة لقلب حسين قائلاً:

"لا تخف أنا لن أؤذيك ولن أسمح لأحد أن يؤذيك، فيبدو أنك جئت إلى هنا عن طريق الخطأ، فأنت لا تبدو لي أنك تنتمي لأي نوع من المجرمين"

فنظر له حسين نظرة حزينة وقد أصابه الكرب مما عاناه من مضض وذل وظلم فهو في قرارة نفسه يشعر أنه كان يدافع عن نفسه ولم يقتل كريم بقصد أبدًا، وليس كما يبدو للقانون أنه مجرم وأن ما ناله من هؤلاء المجرمين هو العقاب الواجب والكافي جراء فعلته ثم حدد طرفًا متأملاً في الرجل للحظات وقد استحوذ عليه التوجس ثم قال:

"ومن انت؟"

فقام الرجل بمصافحة يد حسين بتودد دون أن يمدها حسين ولكن الرجل أمسكها مصافحًا قائلاً:

"أنا فتحي بدران، هجام"

فنظر له حسين طويلاً ثم قال متسائلاً:

"تعني أنك سارق شقق؟"

فأومأ فتحي رأسه بالإيجاب قائلاً وهو يبتسم:

"نعم بالضبط هو كذلك، ولكن ما تهمتك أنت؟ فأنت لا تبدو لي من النوع المجرم، هل أنت هنا بسبب السياسة الملعونة التي تودي بأصحابها إلى ما خلف الخيال؟!"

فنفى حسين كلماتــه بإيماءة من رأســه دون أن ينبس ببنــت شفة وقد عصره الحزن ثم قال فتحي متسائلاً:

"سرقة إذن؟"

وجاءت نفس الإجابة بالنفــي من حسين فقال فتحي وهــو يحاول فهرسة الجرائم في رأسه:

"نصب بالتأكيد"

فنفى حسين مــرة أخرى وفي هــذه اللحظة صمت فتحــي للحظات يتأمل حسين وأشاح ببصره بعيدًا البرهة ثم عاد ينظر له قائلاً بهمس:

"قتل؟"

فنكس حســين رأسه بمضض وحزن وقــد أكربه الســؤال ثم أومــأ برأسه بالإيجاب قائلاً وهو يلوح بيديه:

"ولكنني أقسم بالله أنني قتلت دفاعًا عن نفسي"

فقام فتحي بتهدئته قائلا:

"لا عليك، لا عليك، فهكذا الدنيا أحيانًــا تأخذنا إلى الطرق التي لا نبتغيها وما نحن إلا طائعين للقدر"

بدا لحسين أن ذلــك الرجل هــو مؤمن بالله ويعلــم الحلال من الحــرام فهم حسين قائلاً:

"هل سيسامحني الله؟"

فابتسم فتحي قائلاً:

"بالطبع إن تبت إليه توبة لا رجعة فيها"

ولكن أنا بالفعل تبت إليــه ولكن ليس هناك وقت للتكفــير عن ذنبي حيث أنني سأساق إلى حبل المشنقة فهذا أمر لا ريب فيه.

"لقد حدثتني بأنه دفاع عن النفس فكيف ستساق إلى حبل المشنقة فإن من يساق هو من قتل عامــدًا في غير بيته من أجــل السرقة أو أي شــيء آخر على ما أظن"

فصعد حسين بنظــرة متوجسة في فتحي جراء وقع كلماتــه وكأن اعتقاد ما كان يحسبه بالطريقة الخطأ ثم قال:

"إن الأمر ليس كذلك"

فقال له فتحي حيث التحم حاجباه متعجبًا ثم قال متسائلاً:

"ماذا تعني؟!"

فقام حسين بقص قصته على فتحي من بداية دخوله إلى شقة الحاج إسماعيل حتى اللحظة التي قابله فيها، وهنا نظر له فتحي طويــلاً مقلبًا النظر فيه ثم أشاح ببصره عنه يفكــر ويحلل ما حدث مع حســين وقد بدا عليه الوجــوم ثم قام من مجلسه يسير خطوات بتمهل ثم نقل طرفه إلى حسين قائلاً:

"ولكن هكذا أنت ستساق إلى حبل المشنقة لا محالة"

فارتعد حسين وبدأ في الارتجاف وكأنه يعرف ذلــك لأول مرة وكأنه أيضًا كان ينتظر لو أن أحدهم يحاول أن يخفف عنــه الحكم فلا يهم إن كان ذلك هو القاضي، ولكنــه بالفعل ينتظر كلمــة رحمة تنزل عليه لتذيب جليــد معاناته ثم فجأة قال له فتحي وهو يجلس أمامه:

"ولكن هناك حالة واحدة هي ما ستنقذك من حبل المشنقة"

فوهجت عينا حسين بالأمل المنتظر قائلاً بلهفة:

"ما هي؟، ما هي؟"

فقال فتحي وهو يلوح بيديه:

"أن يظهر قاتل الحاج إسماعيل"

فأصاب حسين اليأس والضجر قائلاً:

"وكيف لي أن أجده وأنا أقبع هنـا؟!، وهل ستبذل النيابـة مجهودًا لتصدق قاتلاً مثلي؟ فهم لديهم القاتل الآن، فلم العناء إذن؟!"

فأمسك فتحي بقوة يدي حسين قائلاً:

"عليك أن تعترف بكل شـيء كما قصصت على مسامعـي منذ برهة حتى يتم تبرئة ذمتك من دم إسماعيل هذا، وأن يحاكمك القانون فقط على جريمتك وليس جرائم غيرك"

فقال له حسين:

"ولكنني أخاف"

فتعجب فتحي عاقدًا حاجبيه ثم قال له بحدة:

"مم تخاف، من حبل المشنقة أم من السجن؟"

فجاء صمت من حسين ثم أردف فتحي وهو يهم من مجلسه قائلاً:

"عليك أن تقول الحقيقة وإلا لن ترى النور أبدًا، بل إنك لن ترى الحياة"

[٤]

كانت الشهود تتوافد تباعًا باستدعاء من النيابة في الأيام اللاحقة من سكان المبنى ومـا يجاوره وأصحـاب المحال المجـاورة للمنزل والعاملـين بها وكان محمود مواظبًا على تسجيل كل شيء وأحيانًا الالتجاء إلى الرسم ليرسم أحداث الجريمة، نعم فإنه الخيال الأقرب إلى واقع الجريمة من وجهة نظره حيث أن محمود يؤمن تمامًا أن كل الجرائم لم تكن سوى خيال تحول إلى واقع ولكنه ليس أكثر من خيال أسود.

وفي هذه اللحظة بالتحديد دلف إلى غرفة التحقيقات أحد العاملين في أحد محال الحاج إسماعيـل وكان شابًا لا يتجاوز الفترة الثلاثينية مـن عمره، طويل القامة، نحيف البدن، أبيض البشرة يملك من الوسامـة ما يكفي ليجلب الانتباه حيث اتضح من خلال تقارير المباحث أن ذلك الشاب يعمل لدى إسماعيل من سنوات طويلة وهنا شرع محمود في إرسال الأسئلة على ذلك الشاب الذي كان غير آبه بأي شـيء وربما هذا ما أثار شـك محمود به لحد ما حيـث أنه لم يبك مثلاً كغيره حزنًا على ما حـدث بالحاج إسماعيل أو لم يصبه الخـوف أو التوتر كأقل ردة فعل لمواجهة تحقيق في جريمة قتل وبدأ في إلقاء الكلمات الاعتيادية مثل:

"أنا لا أعلم شيئًا" بنوع من التوسل.

"أنا لا أعلم لِمَ أنا هنا؟!" بنوع من التهكم والخيفة.

"والله يا بيك أنا مظلوم" بتوسل وخوف.

كان ذلك الشاب الذي يدعى خالد هادئًا للغاية واثقًا فوق المعتاد ورغم معاشرته الحاج إسماعيل إلا أنه كان غير مبالٍ بما يجري بل اتضح لمحمود كما لو أنه في رحلة ما وهنا بعدما انتهت الأسئلة التقليدية قال محمود وهو يقدح زناد فكره:

"ما هي علاقتك بالحاج إسماعيل؟!"

نظر له خالد مبتسمًا:

"إن علاقتي به تتعدى أمور العمل فأنا أعمل لديه منذ أن كنت في الحادية والعشرين من عمري، فهو بمثابة والدي"

"هذا يعني أنك تعرف الحاج إسماعيل معرفة وطيدة منذ سنوات خلت؟، بل إنها سنوات ليس بالقليلة؟"

"نعم"

نظر له محمود نظرة حادة ثم قال:

"هذا يعني أنك تعلم على الأقل إن كان له أعداء أم لا؟! أو ربما أن هناك شجارًا ما قد نشب في يوم من الأيام وكنت أحد الحضور أو ما شابه ذلك...؟"

أومأ خالد رأسه بالنفي بثقة قبل أن يتم محمود كلماته ثم قال:

"إن الحاج إسماعيل رجل طيب وأبدًا لم أره في عراك أو مشاحنة، بل إنه يتحاشى تمامًا إغضاب أحد أو أن يكون حتى سببًا في ذلك"

وفجأة قال محمود بعد أن أنهى خالد كلماته مباشرة:

"هل زرته قبلاً في منزله؟"

"بالطبع أنا أزوره أحيانًا حيث أنني مسؤول عن دفع مبلغ التأمين كل شهر ودائمًا ما يستدعيني إلى المنزل ليعطيني المبلغ لأدفعه كما أنه يستدعيني أحيانًا لأحاول تحصيل الإيجارات من أصحابها في المبنى الذي يملكه"

فقال محمود وهو يكتب شيئًا في إحدى الورقات أمامه:

"هذا يعني أنك تعلم عنه كل شيء وبالطبع تعلم زوجة الحاج إسماعيل أكثر من العاملين الباقين ومن الواضح أنك بالفعل مقرب لديه كأحد أبنائه"

قال محمود آخر كلماته وهو يرسم ابتسامة ذات مغزى بينما نظر له خالد وهو ينقل طرفه بين أركان الغرفة ومحمود ثم قال:

"إنه يعلم أنني أمين ولم يحدث مني أي سوء تجاهه كما أنه لا يملك أية أبناء تساعده على إتمام أعماله الكثيرة ولذلك هو يعتبرني ابنًا له"

- ولكن كما يبدو لي أنه لا يبدو عليك أي حزن لفراق والدك الروحي.

فابتسم خالد ابتسامة باهتة وهو يحدد طرفًا في محمود قائلاً:

"ربما إنه غير واضح لكن وحده الله يعلم ما يعتمل في صدري من حزن وكدر"

فصعد محمود بنظره فيه يتأمله لبرهة ثم قال:

"أخبرتني أنك تودع مبلغ تأمين في نهاية كل شهر، أي نوع من التأمين تقصد؟"

لم يخالج خالد أي تفكير آخر في هذه اللحظة بل قال وهو يشعر بالمضض:

"تأمين على الحياة"

فتململ محمود في مكانه وشرد لبه للحظة ثم سرعان ما صفق باب الشرود ثم اتجه إلى خالد موجهًا سؤالاً بتأنٍّ وهدوء تام:

"ولم تعتقد أن رجلاً لا يحمل ضغينة لأي أحد كما أنه لا أحد طبقًا لأقوالك يكرهه أن يقوم بعمل وثيقة تأمين على الحياة؟!"

فهز محمود منكبيه راسمًا علامات النفي قائلاً:

"لا أعلم"

– كيف لا تعلم وأنت أحد أبنائه كما تدعي؟

فلوح خالد بيديه متعجبًا قائلاً:

"بصدق لا أعلم!"

هجست أفكار محمود في تلك اللحظة أن تلك الوثيقة وراءها سر كبير ثم قال وهو يغض بطرفه عن خالد:

"كم قيمة تلك الوثيقة؟"

"خمسة ملايين"

فصعد محمود فجأة بنظره في خالد وكأنه لم يتوقع ذلك المبلغ الكبير على الإطلاق مرددًا:

"خمسة ملايين"

فقال خالد:

"نعم"

فقال محمود بهدوء محدقًا طرفًا عميقًا في خالد:

"متى قام الحاج إسماعيل بعمل تلك الوثيقة؟"

"منذ سبعة شهور تقريبًا"

– لماذا تظن أن الحاج إسماعيل قد قام بعمل تلك الوثيقة؟

– لا أعلم بالضبط لم وحينما سألته قال لي هذا ليس من شأنك.

– هل تعلم من المستفيد من هذه الوثيقة؟

– لا أعلم.

فنظر له محمود طويلاً ثم قال:

"ماذا عن السيدة صفاء، ماذا تعلم عنها؟"

فقال خالد:

"لا أعلم الكثير"

فقال محمود:

"حدثني عنها بإسهاب مما تعرفه"

فشرع خالد في الحديث وهو يلوح بيديه من وقت لآخر حيث اتضح لمحمود أنه من ذوي استخدام الأيدي للتعبير عن كلماتهم حيث قال خالد:

"لا أعلم عنها الكثير، فهي لا تتحدث كثيرًا كما أنها تحمل من الغرور بعض الشيء، فهي لا تتحدث إلى العاملين تقريبًا إلا نادرًا حيث تجلس أحيانًا في مكان الحاج إسماعيل وخصيصًا في الآونة الأخيرة نتيجة لمرضه بالساعات لا تتكلم مع أحد في أي شيء"

صمت خالد للحظات وكأنه يتذكر شيئًا ثم سرعان ما أردف قائلاً:

"كما أنها في الشهر الماضي قامت بدفع مبلغ التأمين"

فنظر له محمود قائلاً:

"لقد اتضح لي من كلماتك أن لا أحد يعلم عن تلك الوثيقة"

– لا أعلم بالضبط ماذا حدث ولكنني فوجئت بذلك حينما ذهبت إلى الحاج إسماعيل لإتمام المهمة كما تعودت ولكن يبدو أنه أخبرها بالأمر.

فقال محمود وهو يتأمل خالد بنظرات ثاقبة:

"أكمل"

فقال خالد وهو يعمل على محاولة فتح ملفات ذاكرته حيث اقتضب وجهه:

"لا أعلم أكثر من ذلك"

فقال له محمود وهو يومئ برأسه إيماءات بطيئة:

"سؤال أخير، هل كان الحاج إسماعيل يعطي لك مبلغ التأمين أمام زوجته؟"

فقال خالد وهو يحاول التذكر:

"إم، نعم، ولكنه كان يقول دائمًا لي – كما حدثتك سابقًا، قم بدفع تلك الأموال لأصحابها –، وهكذا يحدثني دومًا عندما يتعلق الأمر بالأعمال أمامها"

– تقصد أنه لا يتحدث بتفاصيل في حضورها؟

– لا، هو هكذا دائمًا أمام أي أحد، فهو يتفق مسبقًا معي على الهاتف أو في المكتب ثم يذهب لإحضار الأموال من البنك ومن ثم يتصل بي لأذهب إليه في المنزل لأتم بدوري عملي.

– وقع على أقوالك وتستطيع الذهاب ولكنني سأحتاجك فيما بعد"

فأومأ خالد رأسه بالإيجاب ثم قام بالتوقيع على أقواله وكان محمود في تلك اللحظة شاردًا يحلل ما جرى وانصرف خالد من غرفة التحقيقات وبدا محمود في رسم خيوط جديدة بين رسومه وكثرت الأسهم التي تؤدي من وإلى، ولكن يبقى السؤال داخل محمود إلى من سيشير السهم الأخير؟!

الفصل الخامس

[١]

وفي اليوم التـالي كان الموظفون في عمل دؤوب يقومـون بمهامهم المختلفة في شركة التأمين حيث كانت تجلس في مواجهة أحد المكاتب صفاء التي كانت ترتـدي رداءً عاديًـا للغاية وقد بـدا عليها الهـدوء والطمأنينة وسرعـان ما جاء الموظف المسؤول يرحب بصفاء التي رآها في المرة الأخيرة منذ ما يقارب الشهر قائلاً:

"أهلاً سيدة صفاء، كيف حالك؟"

ابتسمت صفاء ابتسامة خفيفة لا تخلو من الجد:

"أنا بخير الحمد لله، أنا هنا لأقوم بدفع قسط التأمين"

فنظر لها الموظف طويلاً ثم قال:

"حقًـا! لا أعلم ماذا أقـول!، أنا آسـف لم حدث، فقد قـرأت عن الحادث المروع ولكن السـؤال الآن لم تقومين بدفع القسط الشهـري؟! حيث أنك ربما لا تدركين ما هي الإجراءات المتبعـة في هذه الحالة! فإن الشركـة ستقوم بتعيين محققين من طرفها لمتابعة الأمر حتى ننظر ماذا سنفعل مع ورثة الحاج إسماعيل، فكما تعلمين أن قيمة وثيقة التأمين باهظة للغاية"

شعرت صفـاء برجفة تسري في جسدهـا حيث أنها لم تـر خبر الحادث في أية جريدة وبـدأت تعود بذاكرتها للوراء لتحاول تقصي حقيقـة ما يقوله هذا الموظف الذي بـدا عليه البـرود والابتسامة التي طالما ما يطلقونهـا في وجوه

عملائهم ولكن هـذه الابتسامة الأخيرة التـي صاحبت آخر كلماتـه لم تشعر تجاهها بالاطمئنان فحاولت جمع رباطة جأشها ثم رسمت الحزن على ملامحها ونكست رأسها في الأرض وهي تقول بصوت حزين:

"أنـا لم آت إلى هنـا إلا لدفـع قسـط التأمين الشهـري، فقـد حدثني أحد الأصدقاء بـأن عدم وجود جثة المجنـي عليه يمنع الورثة من حـق الحصول على أي مبلغ من شركة التأمين"

"هذا صحيح، ولكن الأمر ليس بكل تلـك البساطة، فطبقًا لقوانين شركتنا إن الأمر أعقد من ذلك قليـلاً ولكن لا يمكنني أن أطلعك علـى كامل البيانات، حيث أستطيع أن أقول أنه لا يمكـن أن تقومين بدفع القسـط الشهري الآن لأن زوج سيادتكم قد تعرض لجريمة قتل وليس له جثة، ومـن هنا سنكون في صدد الفصل في هـذه القضية مـن قبل القضـاء والطـب الشرعي وبعض التفاصيل الأخرى التي لا يمكن ذكرها فهي من القوانين السرية للشركة وخصوصًا بما يتعلق بشأن هذه الأمور، فكما تدركين أنها حـالات نادرة في شركتنا ويجب التعامل معها بحرص"

تأوهت وزفرت وهي تومئ برأسها تفهمًا ثم قالت:

"أنت تعلم أنـا لا أفهم في هذه الأمـور بالشكل المطلوب كمـا أن التكهن بشيء ما قد ينتـج عنه خطأ فادحًـا ولذلك كنـت خائفة من أن يتـم فسخ عقد التأمين لعدم سدادنا القسط طبقًا لما سمعته من بعض الأصدقاء"

دق جرس هاتف الموظف وقد بدا عليه أنه يستمع لأمر ما بالشكل الروتيني واستمر الحديث إليـه فقـد كان الصوت غير واضـح ولكـن في النهاية لم يقل سوى:

"بالضبط كما طلبت... سأفعل ذلك، أشكرك... مع السلامة"

نقل طرفـه إلى صفاء راسمًـا الابتسامة وهو يمد يده في إحـدى الورقات ثم انتشل منها أحد الكروت ثم أعطاها لها قائلاً:

"تلك هـي هواتـف الشركـة والهاتـف الخاص بـي حيث أننـي الموظف المسؤول عن قيمة وثيقتكم وإن جد شيء جديد بالطبع سأقوم بالاتصال بقائمة الهواتف التي تخصكم"

شكرته باقتضاب ومضض – ألا يدحض هذا مساعيها ويعرضها للخطر – وسرعان ما أشاحت بوجهها ولكن سرعان ما قال الموظف:

"مدام صفاء"

فالتفتت له بينما قال وهو يبتسم ابتسامة غريبة:

"لا تقلقي، فإن الأمر لن يطول كثيرًا، ليس عليك سوى الانتظار"

فنظرت له بنفـس هاجسـة متوجسة وقـد تسلـل إليها الشعـور بالخوف من كلماته وسرعان مـا أومأت برأسها بإيمـاءات خفيفة تنم عـن موافقته الأمر واتجهت مسرعة نحو باب الخروج وقد كان يدور بلبها ملايين الأفكار والأسئلة والتكهنات عن ذلك الموظف الذي بدا مريبًا.

[٢]

في هـذه الأثناء كان سالم يقـوم بتكوين فريـق مساعديـه للتقصي عن تلك القضية ونشرهـم في مراقبـة جميع مـن يشك بهـم بالاتفاق مع محمـود على ذلك، فقـد كان سالم في قـرارة نفسه يدري أن هنـاك شيئًا ناقصًـا لم يظهر بعد فإنه من النوع الذي لا قبل له على انتظار فك لغـز غامض يدور في مرمى حياته وخصيصًا إن تعلق الأمر بعمله.

انتقل سـالم مع بعضٍ مساعديه إلى شقـة حسين مرة أخـرى وكأنه يبحث عن شيء ما يقـوده إلى خيوط فك شفرات تلك الجريمـة وخالج تفكيره في هذه اللحظة حسين الذي بدا له غير مجرم بالمرة بل إنه بدأ في الاقتناع بأن حسين هذا ليس أكثر من عائق في حل قضيته، وانـزوى في أحد أركان غرفـة النوم ينفث الدخان كقطار غاضب، يحاول أن يتخيل كيف كانت حياة ذلك القاتل ونظر على السرير من جميع جوانبه حتى وجد شيئًا غريبًا، فقد لمح درجًا سريًا في أحد ألواح السرير حيث أن السرير كان من الطراز الحديث.

قام سالم بمحاولة فتحه ولكنه كان مغلقًا بإحكام فأمر أحد مساعديه بأن يمده بآلة حادة وخلال دقائق كان الدرج مفتوحًا فلم يجد به سوى مفكرة شخصية وبعض الصور الفوتوغرافية لحسين التي تنحصر في مرحلة طفولته وصباه وهم بفتح المفكرة فوجد أنها بعض اليوميات من حياته فقلب الصفحات الواحدة تلو الأخرى ونظر لها سريعًا ثم وجد أن هناك بعض الصفحات التي وضع

حسين تحت عنوانها خطًّا أحمر وكأنها ترمز لشيء ما، فانتقى حسين إحدى الصفحات وشرع في القراءة:

"في ذلك اليوم لم أشعر بما فعلت فأنا لم أكـن في كامل وعيي؟، حيث كنت أشعر بالمضض والذل مما يفعلـه زملائي معي في المدرسة مـن محاولات متعددة لإقصائي بعيدًا عنهم وكأنني نكرة، فلقد أشعـروني بأنني لا أنتمي لهذا المكان، بل لا أنتمي لذلك العالم بأثره، فهم دائمًا ما يقومـون بإهانتي بأمي التي اتهمها والدي بالخيانة والتي ماتـت جراء أفعاله الموحشة وأحكامـه الظالمة، ولكن في هذا اليـوم كان الضغط كبيرًا فلـم أتحمل فقمـت بضرب أحدهـم ضربًا مبرحًا ولكنني الآن ألوم نفسـي لذلك الفعل، فأنـا لست مثلهم على الإطلاق. ولا أعلم ماذا سيفعل بي أبي الظالم إن علم بذلـك؟!... فإنه يتلذذ بضربي ومعاناتي وكأنه يحاول النيل من أمـي المظلومة التي فارقت الحياة بالنيـل مني، كما لو أنه يراها في، أي ظلم ذلـك؟! وأي عالم هذا؟! فإن أبي اتهم أمـي لأجل أن يتزوج من أخرى رغم أنـه كان ممكن لـه أن يتـزوج دون كل ذلك، ولكنـه أراد أيضًا ثروتهـا... أراد أن يسلب كل شيء بظلـم وافتراء، فأحكم عليهـا واتهمها في شرفها، فقد كذب وصـدق كذبته وشعر بأنني أذكره بهـا، فلكم أتمنى أن أغادر هذا المنزل ولكنني لا أملك شيئًا ولا أستطيع أن أعمل وأنا في هذه السن المبكرة كما أنني أريد استكمـال دراستي كما أوصتني أمـي رحمها الله، ليرحمك الله يا أمي ويرحمني"

أنهى سالم قراءة تلـك اليومية ثم قال وهو يغلقها محـدقًا طرفًا شاردًا في أحد جوانب الغرفة ثم قال:

"ليرحمنا الله جميعًا"

شعر سالم بالعطف تجـاه حسين وما عانـاه في طفولته ثم قـام بأخذ الصور والمفكرة معًا وانصرف.

[٣]

في هذه الأثناء وصل تقرير الطب الشرعي الذي كان يحمل بين طياته العديد من المفاجآت لمحمود حيث جلس مشدوهًا واستحوذ عليه السكون والريبة في الأمر، فقد شعر أن جميع تكهناته لم تكن سوى نقاط رصاص ضعيفة على ورقة هشة تم مسحها ببساطة تامة بمجرد أنه قرأ كلمات ذلك التقرير.

كان وجه محمود يوحي بالامتقاع لما رآه في تقرير الطب الشرعي فقد كانت مفاجأة حادة، وعندما دخل عليه سالم في تلك اللحظات وجده ساكنًا يستحوذ عليه الشرود زائغ البصر حيث لم يشعر حتى بتواجد سالم ثم قال محمود وكأنه يتمتم شيئًا بمضض وحزن:

"أي نوع من الرجال المنكوبين هذا الذي يقبع في السجن؟!"

فما من سالم إلا أن استحال من السكون والقتوم إلى الابتسامة وكأنه تمنى شيئًا فتحقق ثم قال لمحمود بلهفة:

"ماذا هناك؟ هل هناك ما يعكر صفوك؟"

فنظر له محمود نظرة طويلة بها شيء من الشرود ثم قال:

"لقد جاء تقرير الطب الشرعي ولم أتوقعه بهذه الشكل على الإطلاق"

فظهرت ابتسامة غامضة على وجه سالم ثم حدد طرفًا منتبهًا في محمود قائلاً:

"وماذا جاء به؟"

فساد الصمت هنيهة حيث قرع محمود أبواب الاستجداء بأفكاره ثم شرع في قراءة جزء من التقرير بصوت هادئ:

"إن الدم الذي تم أخذ عينة منه هو لثلاثة أشخاص مختلفة، فالنسبة لجثة الشاب فإن هناك العديد من الضربات المتتالية بقطعة زجاجية صغيرة وربما أنها قطعة من مزهرية ما التي عملت على إحداث جروح سطحية في منطقة الصدر وقد فقد المجني عليه وعيه من جراء شدة الخوف والصدمة بينما قد توفي نتيجة الاختناق حيث وجدت أثار كسر في عضلات الرقبة التي أودت بحياته في الحال وقد وضح لدينا أن هناك مدة زمنية لا تقل عن خمس دقائق ولا تزيد عن ثمان دقائق بين الطعنات السطحية التي تعرض لها الصدر وكسر الرقبة حيث أن كشف الـDNA... أثبت أن المتهم يوجد بجسده ثلاثة أنواع من الحمض النووي حيث أن القتل لم يتم إلا بعد مقاومة"

ثم نظر سالم إلى محمود جاحظ العينين ثم أغض النظر للحظة وقام من مجلسه وهو يشعل سيجارة متجهًا إلى النافذة ثم قال بعد أن أخذ نفسًا عميقًا منها:

"ماذا ترى الآن؟!"

- أرى أننا في صدد جريمة محكمة وأرى أيضًا أنه إن لم يتكلم صديقنا القابع في السجن فإنه لن يسلم من حبل المشنقة.
- هل تؤمن ببراءته؟
- أظن ذلك...
- كيف سنصل للحل؟!
- هناك بعض الشكوك التي تدور في رأسي منذ أن قرأت التقرير وقد عملت فعلاً على رسم الجريمة من جديد والاطلاع على القضية من حرفها الأول إلى آخرها.

- وهل توصلت لشيء؟

جاء رد سالم في تلك اللحظة وهو يخرج من أحد جيوبه مفكرة حسين التي أتى بها من شقته وخلال ذلك دخل أحد العاملين فأمره محمود بأن يرسل إليه قدحين من الشاي بينما استرسل سالم قائلاً:

- أنا متأكد أنك وصلت لشيء ما يربط كل تلك الخطوط المتباعدة بخط واحد.

فأومأ محمود برأسه بالإيجاب وهو يبحث بين الأوراق عن شيء ما ثم قال:

- لدي العديد من الأسئلة يا صديقي التي تدور برأسي.

لم ينبس سالم ببنت شفة حيث حدج محمود بنظرة استطلاعية مترقبة بينما أردف محمود يقول حيث وجد الورقة التي يبحث عنها:

- لقد قمت بتحليل تلك القضية من بدايتها إلى أحداثها الآن، وتبين لي الآتي حيث أنني لم يخالجني الشك بعد مقابلتي بحسين الأخيرة ولقاء بعض الشهود ومدام صفاء وخالد العامل لدى إسماعيل المفقود بأن هناك شيئًا مريبًا لا أفهمه، كما أن قناعتي زادت بأن حسين لم يكن غير الرجل الخطأ في المكان الخطأ والتوقيت الخطأ لمخطط أكبر، وهذا هو هاجسي الأول وربما أن إيقاع حسين في تلك القضية مقصودٌ لمحاولة تضليل العدالة والجنوح عن القاتل الحقيقي لكريم وإسماعيل.

ثم نظر محمود إلى الورقة التي بيديه ثم استرسل كلماته قائلاً:

"والآن سأخبرك بما يدور في خلدي من أسئلة مختلفة، السؤال الأول ما هو سبب تواجد كريم من الأساس في شقة الحاج إسماعيل؟! ولا أظن أن الأمر يتعلق بكونه سكيرًا وإن كان كذلك فإن وقت الجريمة مبكر وأنت تعلم ما أعني"

أومأ سالم رأسه بالإيجاب بينما استرسل محمود يقول:

"والسؤال الثاني وهو مشابهٌ للسؤال الأول لماذا تواجد حسين في تلك اللحظة بالذات؟ والسؤال الثالث وذلك من خلال شهادة أحد الشهود التي رأت إسماعيل مقتولاً فأين ذهب إسماعيل خلال تلك الدقائق المعدودة فأنا لم أر أحد الشاهدين متعبًا كما ادعى أحدهم معللاً تواجده في ذلك الوقت بالذات؟"

فنظر له سالم قائلاً وهو يومئ برأسه بالإيجاب:

"نعم، هذا صحيح فإن من مراقبتنا لهذين الشابين تبين أنهما أبدًا لا يبارحان القهوة إلا بعد منتصف الليل، وبالفعل الأمر يدعو للريبة"

- وهذا ما يوثق كلماتي وكما تعلم أن هناك مصوغات تقدر بثمن كبير قد اختفت من الشقة، وقد وجدناها بشقة حسين وأشعر إن صح ظنّي أن حسين لا يعلم شيئًا عن الأمر ولكن سأتبين ذلك من خلال تحقيقي معه؟

- أتقصد أن القاتل الحقيقي عمد إلى ذلك؟

- أظن ذلك، فليس هذا التكهن بعيدًا. أما سؤالي الرابع فإنه يتعلق بصفاء، فأنا أراها مريبة وغير مطمئنة بعض الشيء، فلم ذهبت إلى شركة التأمين بعد يومين من وقوع الجريمة لتدفع القسط وتخاطر بدس أنفها في الجريمة؟ هل تم ذلك بحسن نية منها أم أنها تعلم بالفعل بمثل تلك الإجراءات حيث إنك تعلم أننا اتفقنا مع شركة التأمين على فعل ما فعلوه حتى ننتهي من القضية، وقد أبلغني أحد الموظفين بتواجدها بمجرد وصولها كما أنني لم ألاحظ عليها ذلك الحزن على الزوج المقتول، كما أن شكوكي بالفعل قوية بشأنها حيث أنها عندما رأتنا لم تتوقع شيئًا آخر سوى مقتل إسماعيل فلم لم تتوقع السرقة مثلاً؟

- ربما لرؤيتها الجثة الممدة على الأرض في تلك الليلة والدماء تسيل منها.
- لا أظن ذلك يا صديقي فلماذا إذن بعد أن أيقنت بمقتل زوجها جحظت عيناها من هول المفاجأة عندما أيقنت أن المقتول كريم وليس زوجها؟

فأطرق سالم برأسه مفكرًا ثم قال:

"لا تنس أنها ربما مرتها الأولى التي ترى بها جثة ما وأن ذلك رد فعل طبيعي سواء أكان القتيل إسماعيل أم كريم"

سكن محمود للحظات وقد بدا عليه أنه قدح زناد الفكر ثم قال:

"لا أظن ذلك أيضًا يا صديقي فإن امرأة في برودة أعصابها وتلك السرعة التي رأيتها منها في تقوية رباطة جأشها لا تتوقع منها رد الفعل هذا، وأما سؤالي الأخير وهو عن ذلك الشاب الذي يدعى - خالد - فأنا أراه محل اهتمام حيث شعرت أنه بدون مناسبة ذكر لي قضية وثيقة التأمين وكأنه يحاول أن يلفت انتباهي إلى شيء ما فقد كان بإمكانه مثلاً أن يكتفي بالإدلاء بأن إسماعيل يرسل إليه ليعطيه الأموال ليقوم هو بدوره كموظف أمين ولكنه دون سؤاله بدقة أثار تلك النقطة؟ فما السر وراء ذلك الشاب؟!"

أخلد سالم إلى الصمت مفكرًا ثم قال بعد هنيهة:

"أرى أنه من خلال ما سمعت منك أنك فتحت بالفعل الأبواب الحقيقة للوصول إلى القاتل"

- إن السؤال عن القاتل ليس هو ما يشغلني الآن ولكنني أبحث عن الدافع الحقيقي الذي أودى بحياة كريم وأخفى إسماعيل وزج بحسين في السجن فإن الدوافع دائمًا هي ما تقودك إلى الإجابة يا صديقي.

وهنا دخل عامل الشاي حيث أشعل سالم سيجارة وظهر عليه كأنه يحاول أن يتذكر شيئًا ثم قال فجأة وهو يبتسم ابتسامة سخرية:

"تبًا للنسيان..."

ثم مد يده لمحمود يعطيه المفكرة وهو يقول:

"لقد وجدت هذه في شقة حسين، إنها مفكرته الشخصية، ربما تساعد في إماطة اللثام قليلاً عن موقف ذلك الشاب"

فابتسم محمود ابتسامة متوترة وهو يأخذها من يد سالم ثم قال بلهجة جدية:

"الآن عليك بمراقبة ذلك الشاب خالد، وعليك أيضًا بالتقصي عن أمر هذين الشاهدين ربما نحصل على معلومة جديدة تفيدنا في إماطة اللثام عن هذه القضية، كما أريد منك أن تذهب إلى القهوة بنفسك التي يترددان عليها لتعلم الحقيقة بالضبط، أما أنا فعلي تولي أمر حسين لأصل إلى إجابة قاطعة على سؤالي"

وقبل أن ينهي محمود كلماته وقعت عيناه على كلمة كتبت بخط أحمر كبير في مفكرة حسين وكانت تلك الكلمة هي "الهروب" وأن الهروب هي الكلمة المماثلة للفظ فوجا... Fuga

الفصل السادس

[١]

وقبل أن يخرج سالم بلحظات أمر محمود أحد رجال الأمن بأن يأتيه بحسين من السجن.

"عليك أن تقول الحقيقة يا حسين، عليك أن تقولها"

كانت هـذه كلمات فتحي التـي هتف بها الحسـين وهو يبتعد عـن الزنزانة بصحبة رجل الأمن بينما كان حسين يلتفت إليه في قلق وتوجس وخوف.

دخل حسين على محمود الذي تغيرت هيئته الحازمة إلى هيئة أقل حزمًا بكثير وعلته ابتسامة عريضة وذلك ما أزاد قلق حسـين، وقام محمود بتوجيه دعابة إلى حسين الذي وضح عليه المعاناة قائلاً:

"يبدو أنهم قد قاموا بتعليمك أول دروس الضيافة"

وساد الصمت لوهلة قصيرة استمرت خلالها نظرات طويلة تبادلها الاثنان ثم استرسل محمود قائلاً:

"ولكن يبدو أن ضيافتنا لا تعجبك"

ثم ابتسم ابتسامة رقيقة وقال حيث حملت لهجته صدق الأصدقاء:

"ولا تعجبني أنا أيضًا، أتعلم ذلك؟"

فنظر له حسين ابتسامة تملأهـا الأسئلة والريبة من تلـك الطريقة الغريبة في الحديث معه، وسرعان ما استطرد محمود قائلاً:

"علينـا أن ننهي ذلـك الوضع الذي نحـن بصدده، فيحصـل كل منا على نصيبه، أنا أحصل على الحقيقة وأنت تحصل على الحرية القريبة"

ثم أشار إليه محمود بسبابته من خلال النافذة قائلاً بصوت هادئ بطيء:

"الحرية"

ثم سرعان ما قال محمود بشكل مباشر حيث لم يتصور حسين ذلك:

"ما هي علاقتك بصفاء؟"

فلقد تصور أن يسأله عن شيء آخر ولكن لم يحدث هذا على الإطلاق فارتجف ناظرًا إلي محمود الذي بدا مبتسمًا وديعًا على غير عادته، ثم أشار بيديه لحسين ليحثه على الحديث فقال حسين:

"لا تربطني بها أية علاقة"

فنظر له حسين بتعجب وقد انعقد ما بين حاجبيه فأردف محمود يقول موضحًا:

"أعني أن العلاقة لا ترتبط بكونك تعرفها أو على معرفة مباشرة بها، ولكن ربما تعرف أشياء عنها لا يعرفها الآخرون، وتلك هي أنواع العلاقات التي لا تعرف عنها"

فنظر له حسين الذي نكس رأسه وسرت رعشة في جسده ثم فجأة شعر بيد تلمس كتفه فانتفض في مكانه ونظر بجانبه فرأى محمود ينظر إليه قائلاً:

"أطلعني على ما تعرف يا حسين وإلا سأغلق هذه القضية على أنك الجاني، وستساق إلى حبل المشنقة لا محالة، ساعدني كي أساعدك"

فلزم حسين الصمت ناقلاً طرفه بعيدًا عن محمود، فأومأ محمود برأسه إيماءات من عزم على شيء ما فاتجه إلى مكتبه ثم انتزع شيئًا ما من بين الأوراق وكانت بدورها مفكرة حسين ثم قال له وهو يشير بها في وجهه بلهجة حازمة:

"أهذه تخصك؟ وهل هذا خطك؟ لقد وجدناها في شقتك؟... أتعني لك شيئًا هذه المفكرة؟"

فنظر له محمود نظرة طويلة ولكنه لم يتكلم وقد وضح عليه الاندهاش التام فأومأ محمود برأسه وهو يقول:

"وليكن إذن، سأعمل على تنشيط ذاكرتك من خلال قراءة إحدى اليوميات"

فارتعد حسين متململًا في مكانه بينما قلب محمود الصفحات وتوقف عند صفحة بعينها حيث وضح أنه علمها بقلمه ثم شرع في القراءة بصوت جهوري حاد:

" لم أكن أتصور أن صفاء إنسانة خائنة إلى كل هذا الحد، فإنها خائنة وتعيش بيننا كسيدة شريفة تصون بيتها ورجلها بينما أمي التي فارقت الحياة قهرًا وظلمًا مازلت الخائنة في نظر الكثيرين، أية عدالة تلك؟ وأي بشر هؤلاء؟ بل أي شيطانة هي؟"

وتوقف هنا محمود عن القراءة وهو ينظر إلى حسين ثم قال:

"أرى أن تلك الكلمات كافية لزجك في السجن بتهمتي القتل والسرقة بالتآمر مع صفاء حيث أن عقلك الباطن صور لك أن صفاء بريئة كأمك بينما إسماعيل المتمثل في والدك ظالمًا فقتلته، لقد اختلطت عليك الأمور يا حسين"

فانتفض حسين وجحظت عيناه من وقع كلمات محمود ثم استدار محمود ناظرًا للحائط مبتسمًا وكأنه قد دبر شيئًا ونجح فيه فسمع حسين يقول متلعثمًا:

"لا تظلمني، فأنا... أنا لم أفعل شيئًا و لم أكن خائنًا في يوم من الأيام ولكن كل ما في الأمر أنني رأيت خيانتها في أكثر من مشهد وكنت أشفق لحال الحاج إسماعيل حيث كان مريضًا يعيش جاهلاً بخيانة زوجته"

وساد الصمت للحظات حيث أغض حسين طرفه وقد وضحت في عينيه لمحة من الذكريات ثم قال بعد هنيهة:

"لم أكن أنا الرجل الخائن يومًا، بل إنها الخائنة ولكنني لم أتصور أن خيانتها ستدفعها لتقتل"

- أمعنى كلامك أنك رأيتها تقتله وتتجه إلى المتجر حيث لن يستطيع أحد رؤيتها أو إثبات تواجدها في مكان الحادث وذلك لافتتاح المحل الذي التفت حوله الجموع؟
- لا أنا لن أكذب، لكن أظن أنه كريم... أظن ذلك.
- و لم تعتقد أنه كريم هو من قتل الحاج إسماعيل؟

فسكن حسين للحظات ثم قال بتردد:

"إنه... إنه أحد الرجال الذي رأيته معها، كما أنه سكير وغريب الأطوار"

- تقصد أن صفاء أوقعت بكريم في شباكها لتستخدمه في مخططها؟
- أظن ذلك وإلا لم تواجد كريم في تلك اللحظة بالذات؟!، فلقد فكرت كثيرًا بتلك القضية وأنا بين غياهب السجن وقلت لنفسي أظن أن كريم عندما رآني كان مقبلاً على الهروب وأنه كان مختبئًا وعندما خرجت لأطلب المساعدة تصور أنني لن أعود.

ثم سكن للحظات ثم بدا عليه الانفعال وكأنه قد تذكر شيئًا فقال:

"لا... لا هناك شيء لا أفهمه، لقد كان كريم مقبلاً علي، ولست أنا من أقبلت عليه"

- هل معنى كلامك أنك رأيته يدخل من باب الشقة؟
- نعم...
- ربما كان مختبئًا في إحدى الغرف وخرج واختبأ ثم عاد عندما رآك تدخل مرة أخرى ليثبت عليك التهمة؟
- يجوز... لا أعرف.

ساد الصمت للحظات ثم قال محمود:

"هل رأيت أحدًا آخر يمس شرف الحاج إسماعيل؟ فأنت تعلم ما أعنيه؟"

فمال حسين برأسه قليلاً إلى اليمين وكأنه يسترجع الأحداث ثم قال:

"نعم رجلاً واحدًا هو ما رأيته من العين السحرية ببابي في منتصف الليل كان يخرج من شقة الحاج إسماعيل وقبلها على السلم قبل وداعه"

- ربما أنه أخوها أو أحد أقاربها و لم تكن سوى قبلة وداع عادية؟
- لا كانت قبلة من نوع آخر.

فتململ محمود في مكانه وأومأ برأسه متفهمًا ثم قال بعد صمت ليس طويلاً:

"إذن عندما هب كريم بإدانتك والصياح فقمت أنت بالعراك معه وما كان منك إلا أن قمت بقتله؟"

فنظر له حسين بعيون متوسلة ثم قال بنبرة حزينة راجية:

"لقد كنت أدافع عن نفسي و لم أتخيل أنني سأقتله"

- قص لي يا حسين كيف قتلته؟

فساد الصمت لثوان ثم قال حسين بنبرة حزينة مترددة:

"لقد... لقد أمسك بي صائحًا وهو يقول - قتلت الحاج إسماعيل، الحاج إسماعيل قتل - و لم أتمالك نفسي وحاولت أن أمنعه عن الصراخ بوضع يدي على فمه ولكن دون جدوى وسرعان ما تحول الأمر لعراك فأخذت إحدى قطع الزجاج المتكسرة ودون وعي انهلت عليه بالضرب في صدره حتى لم أشعر بحركته فقمت مسرعًا"

وجهش حسين بالبكاء وهو يقول:

"والله... والله لم أقصد أبدًا إيذائه، فأنا رجل مسالم، والله لم أقصد إيذائه"

فنهض محمود من مجلسه قائلاً بنبرة مواسية:

"أي شخص مكانك وفي نفس حالتك سيقوم بنفس الفعل لدرء التهمة عن نفسه"

ثم صمت محمود للحظة ليهدأ حسين قليلاً ثم استطرد قائلاً:

"ولكن السؤال الحقيقي الآن يا حسين لم تواجدت من الأساس في شقة الحاج إسماعيل؟"

- لقد كنت ذاهبًا لدفع الإيجار والاطمئنان على الحاج إسماعيل، ولكنني في بادئ الأمر ترددت ولكن سرعان ما اتخذت قراري بالذهاب إليه.
- مفهوم، أكان باب الشقة مفتوحًا أم مغلقًا؟
- كان مفتوحًا وهذا ما أثار انتباهي فهم ليس من عادتهم ترك الباب مفتوحًا ولكنني لم أفكر في ذلك كثيرًا بل فكرت في أن مكروهًا ما قد نال من أهل البيت.
- وماذا رأيت؟

صمت حسين لبرهة وهو يحاول أن يسترجع ذكرياته ثم قال:

" لم أر شيئًا يثير الانتباه ولكنني كنت خائفًا للغاية وعندما دخلت إلى غرفة النوم وجدت الحاج إسماعيل ممددًا على الأرض وتحيطه الدماء"

- ألم تحاول سؤاله عمن فعل به ذلك؟
- حاولت بالفعل ولكنه كان في قمة إعيائه فلم يستطع أن يمدني بأي شيء، كما أنني كنت متوترًا للغاية ولم أفكر بشيء سوى إنقاذه.

سرى الصمت لبرهة ثم قال محمود وهو يقلب في أوراقه:

"هل أنت متأكد أنك كنت وحدك بالمنزل؟ أعني ألم تشعر بوجود أحد ما؟"

فنظر له حسين متعجبًا من السؤال وحاول أن يركز حواسه على تلك الليلة مسترجعًا ما حدث ثم أخذ نفس طويلاً ثم سرعان ما أوحت ملامحه بالفشل فقال:

"لا لم أشعر بأحد آخر"

- ومتى غادرت الشقة؟
- بعد ارتكاب الجريمة بدقائق.
- ماذا تعني؟
- أعني أني سمعت صوتًا على السلم فلم أتمالك نفسي فهرولت مسرعًا داخل إحدى الغرف حيث تبين لي بالفعل أن هناك شخصين يدلفان الشقة ومن ثم صرخ أحدهما وبعد وهلة قصيرة صرخ الآخر وفي خلال دقيقة تقريبًا أسرعا الخطى ليبلغا عن الجريمة.
- هل تعرفهما؟
- نعم إنهما أخوان يعيشان في إحدى شقق المبنى، ولكنني تعجبت لتواجدهما في تلك اللحظة ولكنني أيقنت أنه حظي الأسود.

فابتسم محمود هامسًا وكأنه يحدث نفسه:

"بل إنه حظك الأبيض"

وكأنه كان يعني شيئًا من تلك الجملة ثم استرسل قائلاً:

"و لم تعجبت من تواجدهما؟"

- إنهما ليست عادتهما على الإطلاق أن يأتيا في ذلك التوقيت المبكر فهما دائمًا ما يأتيان في منتصف الليل أو بعده بقليل.

فنظر له محمود طويلاً ثم قال:

"وأنت تهم بالخروج، ألم تحاول التأكد من موت كريم الشاهد الوحيد على إدانتك في تلك القضية؟"

فقال حسين وقد جهش بالبكاء حيث استحوذ عليه الحزن:

"كيف يمكـن لي التأكد من ذلـك؟، فأنا لست قاتلاً، ويكفيـه مني ما لقى، كما أنني كنت خائفًا للغاية أن يراني أحد و لم أفكر سوى في الهروب"

- كم مكثت في الغرفة؟

فلمس حسين رأسه بأطراف أصابع يده اليمنى ومررها بين خصلات شعره إيابًا وذهابًا وكأنه يحاول التذكر ثم قال:

"لم أمكث طويلاً، تقريبًـا دقيقتان أو ثلاث دقائق علـى الأكثر، فكل شيء حدث بسرعة غريبة"

فقام محمود من مجلسه وهو ينادي أحد رجـال الأمن ليصطحب حسين إلى السجن مرة أخرى وعند خروجه قال له محمود بابتسامة:

"نحن على أعتاب النهاية، فاصبر ولا تحدث أحدًا عما جرى"

[٢]

"أعلم أنها زيارة مفاجئة للغاية يا أستاذ خالد"

ارتجل خالد في مقعده على المكتب وتغيرت ملامحه ثم قام من مجلسه وقد حاول أن يرسم الفتور التام واللامبالاة ولكنه بدا في تلك اللحظة غير مرتاح لتلك الزيارة الغريبة فهو لم يتصور تواجد المحقق وضابط المباحث في هذا الوقت أبدًا بينما قال بنبرة مرحبة فاترة:

"أهلاً وسهلاً بكما في أي وقت"

حدجه محمود بنظـرة طويلة حيث هـرب خالد في تلك اللحظـة من تلك النظرة وهو ينادي بصوت عال علـى أحد العاملين في المحـل بينما تناول سالم إحدى الجرائـد من على طاولة صغيـرة أمام المكتب وتوسـط بدورها وجين من الكراسي الوثيرة ولكـن سالم جلس على إحدى حـواف المكتب من الجهة الخارجية المواجهة للباب وجلس محمود على أحد الكراسي فقال محمود بهدوء تام وهو يحدد في خالد طرفًا حادًا:

"لقد جئناك لنسألك عن بعض الأشياء البسيطة التي تتعلق بالقضية"

فرمقه خالد بنظرة ذات معنى ثم قال مرتبكًا إلى حد ما:

"بالطبع... بالطبع هذا من دواعي سروري، فأنا دائمًا في خدمتكم"

وهنا دخل العامـل فأمره خالد بإحضار قهوة للضيـوف وانصرف وبعد أن تأكد محمود أن الجو خال لعرض أسئلته قال:

"ياترى يا أستاذ خالـد، لماذا في اعتقـادك قام الحـاج إسماعيل وهو رجل مسن كمـا أنه مريض بعمـل وثيقة تأمـين على حياتـه، ألا ترى معـي أن الأمر مريب بعض الشيء ويحتاج لتفسير؟"

- لقد حدثتك من قبل يا سيدي أنه قال لي أن هذا ليس من شأني.

فسعل سالم في تلك اللحظة ثم حدج خالد بنظرة مريبة قائلاً:

"ما نعلمه يا خالد أنك بئر أسرار الحاج إسماعيل، وأن تصرفًا كهذا لابد وأن أطلعك على أسبابه، فمن غير المعقول أن ابنه الروحـي لا يعلم عن الأمر شيئًا بل إن أباه الروحي بمعنى أدق رفض أن يطلعه على حقيقة هذا الأمر الخطير، وطبقًا لتحرياتنا فإن علاقتك بإسماعيل تتعـدى كل الخطوط الحمراء كما أننا عرفنا أن هناك شجارًا قد نشب بينكما في الفترة الأخيرة، فما تعليلك لذلك؟"

تململ خالد في مكانه ثم نكس رأسه قليلاً وسرعـان ما صعد ببصره في سالم لبرهة قصيرة بينما قال محمود:

"ما نعلمه جيدًا أنك تستطيع الدخـول والخروج من منزل الحاج إسماعيل دون أن يشـك أحد بك كما أنـه وطبقًا لتحريـات المباحث لم يتأكـد لنا مكان تواجدك وقت الحادث، فمن غير المعقـول الآن ألا تحدثنا بصراحة تامة وإلا نتج عن ذلك أمور وخيمة"

وصمت للحظة ثم أردف بصوت مريب:

"أمور قد لا تحبها على الإطلاق"

كانت نظرات خالد مرتجفة ويملأهـا الشك والخوف ثم قام من مجلسه وقال بنبرة صوت متغيرة قلقة:

"لقد كنت متواجدًا هنا أثناء الحادث أقوم بإنهـاء بعض الأعمال كما أنني ذكرت لك يا سيدي أنه بالفعـل أبى أن يطلعني عن حقيقة الأمـر، ولأنني أعلم

أنه رجل صاحب مرض لم أحاول مناقشته واكتفيت بمجاراته وتحقيق ما يحب ويريد، أما عـن الشجار الأخير فلم يكـن شيئًا يذكر، فنحـن أحيانًا تحدث بيننا تلك المشادات بسبب أمور العمل كما أن الحاج في الفـترة الأخيرة كان عصبيًّا للغاية"

- هل قابلت السيدة صفاء منذ وقوع الحادث؟

امتعض خالد وفي تلك اللحظة دخل العامـل ومعه القهوة فوضعها وخرج سريعًا بينما ظل محمود ناظرًا لخالد منتظرًا جوابًا حيث قال خالد وكأن الكلمات تحشرجت في حلقه:

"لا... لا لم أقابلها"

- لم؟

- لا أعلم مكان إقامتها منذ أن انتقلت من المنزل.

- وكيف عرفت أنها غيرت مكان إقامتها؟

ساد الصمت للحظات وتخلل ذلك الصمت نظـرات سالم ومحمود الحادة لخالد ثم قال خالد:

"لقد سألت عنها"

فقال سالم:

"ولماذا لم تذهب إليها إن كنت تعرف مكان إقامتها؟"

- كل ما عرفته أنها غيرت مكان إقامتها ولكن لا أعرف أين بالضبط!

فقال محمود وهو يحدد طرفًا متأملاً في خالد:

"ألم تحـاول زيارتهـا فإنها زوجـة والدك الروحـي وهذه من شيـم النبلاء والأبناء الصالحين؟"

ساد الصمـت رهيبًا هذه المرة حيث نقـل خالد طرفه إلى سـالم الذي وقف

مقابلاً لإحدى صور الحاج إسماعيل حيث كان خالد يقف بجواره في تلك الصورة وقد كانت تلك الصورة كبيرة تتوسط الحائط وتملأه تقريبًا بينما قال خالد في تلك اللحظة وهو يحاول إبعاد ناظريه عن محمود:

"لم أحاول، فلقد شعرت أنها ربما لا تريد إزعاجًا من أحد"

أوما محمود برأسه متفهمًا بينما قال سالم وهو ينظر إلى الصورة:

"من هم المستفيدون من وثيقة التأمين يا خالد؟ هل لديك علم بتلك المسألة أم أن الحاج إسماعيل أبى أن يطلعك على هذا السر أيضًا؟"

فنفى خالد ذلك بإيماءة من رأسه بهدوء قائلاً:

"لا أعلم"

فابتسم محمود قائلاً:

"مدام صفاء"

فنظر له خالد نظرة طويلة متسائلة قائلاً:

"هذا بديهي فهي زوجته ووريثته الوحيدة، أليس كذلك؟!"

- ألم يطلعك الحاج على هذه أيضًا؟ ألا ترى أن إخفاءه سر وثيقة التأمين أو لماذا عمد إليها من الأساس ولم يطلعك أنت ابنه الوحيد مع الربط بالمشاجرة الأخيرة التي نشبت بينكما وطبقًا لما لدينا أنها ليست شبيهة لتلك المشاحنات التي تنشب بين أب وابنه بأن الحاج إسماعيل في الفترة الأخيرة كان يرتاب منك فعزم على ألا يطلعك على أسراره مرة أخرى واكتفى بمدام صفاء، ألا ترى معي أن إخفاء سر أمر كهذا عنك يعني عدم الثقة فيك وخصيصًا كما نرى - وقام محمود بالإشارة إلى الصورة المعلقة - أنك قريب له بشدة؟ ألا ترى معي يا خالد أنه كان يخاف من أن تفتك به وليس الأمر مقصورًا على عدم الثقة فحسب؟!

ونظر له محمود طويلاً حيث ذبل خالد تمامًا ونكس رأسه واسترسل محمود يقول:

"ألا ترى معي أيضًا أن كل تلك الأعوام من الخدمة ولم يعمد الحاج على ترك شيء لابنه الوحيد كإرث يستطيع أن يواجه الحياة به من بعده؟، أو على الأقل ترك شيء كمكافاة لخدماته الجليلة التي لا تصدر أبدًا إلا من الأبناء وكما تعلم أن للأبناء على أبائهم حقًا؟"

وهنا استدار سالم وهو يشعل سيجارًا ويمسك بقهوته قائلاً:

"أرى أن تلك المشاحنة كانت بسبب أن الحاج لم يؤمن لك مستقبلك بعد أن أفنيت سنوات شبابك في خدمته، أليس كذلك يا خالد؟"

واكتفى خالد بالصمت بينما قال محمود ببرود شديد وهدوء تام:

"أظن أن إفناء العمر في لا شيء قد يدفع صاحبه للجنون"

وصمت محمود لوهلة وهو يوجه نظرة حادة لخالد ذات معنى قائلاً:

"وقد يدفعه للجريمة أيضًا ثائرًا لعمره المهدر ولحقه الضائع"

وهنا انهار خالد قائلاً:

"أنا لم أقتله، لم أقتله"

وهنا قام سالم بالتحدث إلى أحد رجال الأمن عبر اللاسلكي موجهًا إليه بعض الأوامر وهنا نهض محمود من مجلسه قائلاً:

"وهذا ما سنعلمه خلال الأيام المقبلة، فأنت ستكون ضيفًا علينا، أنت قتلته يا خالد وأخفيت جثته لتمنع أي إنسان من أن يتمتع بثروة الحاج إسماعيل حتى لا تموت أنت غيظًا وكمدًا ومن خلال تلك الخطة المحكمة لا يستطيع أحد آخر التمتع بثروة الحاج إسماعيل مستغلاً كرهك لصفاء التي تشاركك أباك وفي نفس الوقت انتقمت لشبابك بقتل أبيك مع سبق الإصرار والترصد"

ودخل عدد قليل من رجال الأمن وقاموا بإلقاء القبض على خالد وخرجوا جميعًا ومن بعدهما خرج محمود وسـار لم في صحبة بعضهمـا البعض يتبادلان الحديث والابتسامة المنتصرة.

[٣]

كان حسين يشعـر بالراحة الكاملة منـذ التحقيق الأخـير وإن كان ما مر به خلال تلك الدقائق المعدودة في عالم التحقيقات هو منفذه للانتصار على صمته الطويل فقد علم في قرارة نفسه أن سره قد افتضـح ومكنوناته النفسية سيعلمها العالم في محاكمته، سيعلم العـالم أن أمه بريئـة وأنه لم يكن نكرة وأنـه أيضًا قتل لأجل شيء، لم يكتشفه سوى الآن، اكتشفه من كلمات محمود.

اكتشف أن الوجـود القدري له في مكان الحـادث كان يحمل خلفه رسالة ما، فهمها واطمأن من خلالها، لن يحقد على صفاء بعد هذه اللحظة بعد الآن، فهي سرعان ما ستذوب أمام العدالـة، أجزم حسين أن لا سـر يستمر للأبد وأن الأسرار جميعًا هي قنبلة موقوتة تنفجر في ساعة محددة من قبل عالم كل الأسرار.

كان فتحي بدران يتأمله من وقت لآخر فقد حاول مـرارًا أن يعلم ما دار في التحقيق الأخير فقد كان يشعر في نفسه هو الآخر أن ذلك الشاب ليس أكثر من ضحية نفسية لظروف معقدة ليست حديثة المنشأ ولكنها ظروف كهلة للغاية.

وخلال كل هـذه الحبائل الفكريـة لأبطالنا زج رجال الأمـن رجلاً جديدًا خلف القضبـان، وما أن دخل حتى نظـر حوله نظرة متأملـة متوجسة لا تخلو من الحذر والخوف الشديدين، لم يكن وجهه غريبًـا على حسين على الإطلاق فقد صعد ببصره فيه وحدد فيه طرفًا متأملاً وهو يحاول استرجاع ذكرياته، نعم لقد رأى ذلك الوجه بالتأكيد أكثر من مرة، إنه أحـد المترددين على منزل الحاج

إسماعيل وعلم في قرارته أن العدالة الآن تأخذ طريقًا آخر لا يفهمه ولكنه لا يهمه فهمه، الأهم أن تأخذ العدالة الطريق المنشود وسأل نفسه سؤالاً:

"هل معقول أن ذلك الشاب هو من قتل الحاج إسماعيل فهو لم يكن أحد الخائنين؟!"

فهو لم يره ولو لمرة واحدة في مشهد الخيانة المزعوم وفجأة أقبل عليه رجال السجن البواسل للترحيب به كما رحبوا به من قبل وهنا تململ حسين في مكانه ينظر إلى فتحي بدران الذي رأى في عيني حسين نظرة الامتعاض والشفقة معًا وهنا هم فتحي بجذب ذلك الشاب من بين أيديهم وأجلسه بجواره بعد أن نهر المساجين الآخرين وتكور خالد متوسطًا فتحي وحسين وهو ينقل طرفه بينهما بأعين متوجسة تحمل نوعًا من استثارة العطف وطلب الاستجداء لمحاولة الوصول إلى شيء من الطمأنينة وهنا قال خالد بصوت متلعثم:

"أشكركما... هل ستقومان بإيذائي؟... أنا لدي ساعة ثمينة... خذاها إن شئتما ولكن لا تؤذياني"

فربت فتحي على كتفه قائلاً بتفاخر:

"لا تخف، أنا أحمي أمثالك دون مقابل"

نظر له حسين نظرة حائرة دون أن ينبس ببنت شفة ثم قال فتحي:

"ما الذي جاء بك إلى هنا أيها الشاب؟"

فنكس خالد رأسه لثوان ثم قال:

"جريمة سرقة"

– ولكنك لا تبدو لي من النوع الذي يسرق، فأنا لست جديدًا في عالم الإجرام ولا أرى سمات الإجرام فيك.

فامتقع وجه خالد وهز منكبيه قائلاً بصوت هامس:

"هذا ما حدث"

فسكن فتحي للحظات وهو ينقل طرفه صعودًا ونزولاً في خالد بطريقة مريبة ثم ابتسم ابتسامة مفاجئة مريبة قائلاً:

"إذن أنت زميل"

وصدرت منه ضحكات عالية متقطعة وهو يربت بقوة على ظهر خالد الذي استحال إلى الحمل الوديع في تلك اللحظة ثم أشار إلى حسين وهو يقول بتباهٍ غريب:

"وهذا حسين أخوك، قاتل"

فحدج خالد فتحي بنظرة خائفة هاجسة بينما قال فتحي:

"مد يدك يا رجل وسلم، فهو زميل أيضًا ولكنه زميل من العيار الثقيل، فهو متهم في قتل اثنين دفعة واحدة"

فتململ خالد في مكانه وهو ينقل طرفه ببطء لحسين الذي بدا مبتسمًا من تصرفات فتحي الصبيانية وقال:

"لا تُخف الرجل مني يا فتحي واتركه وشأنه"

فنظر له فتحي نظرة استفهامية وأومأ برأسه متفهمًا ثم قال:

"وليكن، ولكنه يكذب يا صديقي ويقول أنه جاء هنا في جريمة سرقة، فنحن لسنا أولادًا صغارًا ليكذب علينا ويدعي أشياء ليست فيه"

ثم رمق خالد بنظرة رهيبة تعكس الشر حيث تعجب حسين من تصرفات فتحي الغريبة التي لم تبدر منه سوى الآن وكأن هناك رابطًا بينه وبين ذلك الرجل أو كأن حسابًا قديمًا لم يتم تصفيته ثم قال فتحي بنبرة حازمة:

"إن لم يقل لي الآن لم أتى هنا سأتركه لكلاب الزنزانة تنهش به كما تشاء"

فظهر تقويض في وجه خالد وشعر بالذعر وعلم أن حاميه ليس حاميًا إلا بشروط فنهر حسين فتحي قائلاً:

"يا رجل، عرفتك رحيمًا بالضعفاء، فأين تلك الرحمة الآن؟!"

- وعرفتني لا أهوى الكذب أيضًا، وأنا أستطيع أن أشمهم.
- ربما أنه لا يحب الإدلاء بما يعتمل في صدره فاتركه وشأنه.

فحول خالد ناظريه إلى حسين وهو يقول له هامسًا بعد أن شعر بهدوء فتحي:

"أشكرك"

- لا عليك فكلنا هنا فينا ما يكفي من الهموم.

ثم سكن للحظة وكأنه يتذكر شيئًا وأردف قائلاً:

"والجرائم أيضًا"

فقال فتحي بعد أن عاد إلى صفاته التي عهدها حسين فيه:

"لا تحزن مني، فقد شعرت بأنك تستخف بي ليس أكثر من ذلك"

شعر خالد ببعض الطمأنينة بينما قال فتحي موجهًا الحديث إلى حسين قائلاً:

"ألن تقل لي ماذا حدث معك؟"

فابتسم حسين ابتسامة باهتة قائلاً وهو ينكس رأسه:

"لقد اعترفت بكل شيء"

- جل ما صنعت يا أخي.
- لا أعلم إن كان ما أقدمت عليه صحيحًا أم لا، لكنني أشعر براحة غريبة وأظن أن ذلك كافيًا بالنسبة لي.
- لا تقلق يا حسين، إن شاء الله كل شيء سيكون على ما يرام، فلا يمكن أن يعاقبك القانون لقتل اثنين لم تقتل منهما سوى واحد.

كان فتحي يقول تلك الكلمات وهو ينظر إلى خالد نظرات ذات معنى ثم قال فتحي موجهًا الحديث لخالد:

"أرى أنك تحمل سرًا كبيرًا أيها الشاب"

فتململ خالد في مكانه وقد شعر بمضض ثم قال بصوت ثائر:

"بالله عليك اتركني وشأني، فأنا هنا في جريمة سرقة، خيانة أمانة وهذا كل شيء، لقد خنت أمانة أقرب الناس لي"

وهنا نظر له حسين نظرة عميقة متأملة يحاول أن يفهم ما يرمي إليه هذا الشاب وأن يفك رموز تلك الكلمات المغلفة بالغموض حيث قال فتحي له موبخًا:

"لعنة الله عليك، فأنت خائن إذن ولست بسارق"

- نعم والآن اغتبط لذلك فلقد علمت الحقيقة كاملة.

وهنا وجه حسين كلماته إلى خالد قائلاً بنوع من الرقة:

"ومن هو أقرب الناس إليك الذي تقصده؟"

فنظر له خالد وهو يحاول تهدئة نفسه بينما أشار حسين برأسه لخالد وكأنه يشجعه على الحديث فقال خالد:

"ولي نعمتي وهو في منزلة والدي"

- هل تقصد الحاج إسماعيل؟

جحظت عينا خالد وأصابه الذهول ثم هتف قائلاً:

"وهل تعرفه؟"

- بالطبع أعرفه فأنا متهم في قتله.

وازدادت عينا خالد جحوظًا ثم نكس رأسه وظهر في عينيه شرود ثم صعد ببصره في حسين بعنف يتأمله ثم قال:

"وهل قتلته؟"

فأومأ حسين برأسه بالنفي قائلاً:

"وأي ضغينة أحملها لهذا الرجل لكي أقتله ولكنك تعلم، تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن"

ولمعت العبرات في عيني خالد ثم قال بحزن شديد:

"يالك من رجل بائس"

وهنا ابتسم حسين وكأنه يحاول تحويل مجرى الحديث قائلاً:

"حدثني أنت أي نوع من الخيانة تقصد"

- خيانة أمانة.

فشعر حسين أن خالد لا يود الإدلاء بما يدور في خلده ويعتمل في صدره ثم فجأة قال خالد وكأنه يحدث نفسه ولكن بصوت مسموع:

"أحيانًا تعترينا بعض الاعتقادات الغريبة الخاطئة، ولكننا نصدقها حتى تتحول إلى فعل نندم عليه فيما بعد"

وأجهش خالد بالبكاء فتبادل حسين وفتحي النظرات التي تحمل الكثير من المعاني حيث حملت أعينهما الأسئلة والتكهنات المختلفة وقام كل منهما بمحاولة تهدئة خالد الذي أصيب بنوبة حزن عارمة.

ومرت الساعات ونام المساجين دون خالد الذي بقي يقظًا يفكر في حياته وما آلت إليه حتى الآن وسرعان ما فتح صفحات الماضي البعيد حينما شعر وهو طفل في المدرسة بأن شيئًا ينقصه وهو الأب حيث توفي والده قبل ولادته ومن ثم تركته أمه لخالته التي تولت رعايته ولكن ليس بالقدر الكافي حيث أهملته وفضلت أولادها عليه وكانت تعامله أسوأ معاملة، نكس رأسه والدموع تسيل من عينيه في صمت، فقد كان افتقاده للحنان والأمان قويًا على مدار حياته حيث كان الأولاد دائمًا ما يقومون بلومه على عدم امتلاكه لأب أو أم وهذا ما منعه من مصاحبة أحد فظل وحيدًا ولكنه فيما بعد تعرف على أولاد الشوارع

الذين ربوه على طريقتهم الخاصة، زاد لديه الكبت المصنوع من فقدان مادتي الأمان والحنان ومر السنون ليلتقي بالحاج إسماعيل الذي انتشله من كل ذلك وعامله أفضل معاملة وتذكر جيدًا العهد الذي عاهد به نفسه بأن يحمي ذلك الرجل من كل شر حيث وجد فيه كل الأحاسيس المفقودة منذ ولادته، وجد فيه الأب.

إن الفوجا لدى خالد تختلف كل الاختلاف، فإن كبته جعله يهرب إلى أحضان الحاج إسماعيل ولكن هروب الحاج إسماعيل وتنصله منه إلى ماذا سيؤدي؟ وإلى أين سيأخذه؟

الفصل السابع

[١]

كان كل شيء هادئاً للغاية حيث كانت تسير صفاء في اتجاه قاعة التحقيقات ولم يخالجها أي تفكير آخر سوى أن ما سيحدث ليس أكثر من تحقيق آخر، ربما لن يؤدي لشيء ولكن ارتيابها من رجل القضاء محمود هو ما جعلها تتوخى الحذر أكثر وترسم علامة أكثر غموضًا على وجهها ذات الملامح الجامدة في بعض الأحيان.

مرت الأيام القليلة السابقة وهي تعلم في قرارة نفسها أنها تحت المراقبة من قبل رجال الأمن، حاولت في هذه الأيام أن تختلي بنفسها وتعود بشريط الذكريات الذي لم يبد لها مرضيًا على الإطلاق فشعرت بالامتقاع والاحتدام والصمت أحيانًا أخرى، كانت تعلم دائمًا في قرارة نفسها أنها لم تكن على صواب حين تزوجت بإسماعيل كما أنها لم تكن على صواب أكثر حين تزوجت في مرتها الأولى ولكنها هي دائمًا المرأة المنساقة خلف رغبة مكبوتة هي بدورها أحيانًا لا تعلم سرها أو منبعها. نعم إنها الرغبة المكبوتة التي قد تؤدي إلى أي شيء.

واستفاقت من هواجسها على صوت رجل أمن يأمرها بالدخول للمثول أمام وكيل النيابة فصعدت ببصرها فيه للحظة وكأنها تحاول إغلاق جميع الأبواب الأخرى والاستعداد للقاء، فسارت على مهل حتى بلغت الباب ودخلت وما أن دلفت حتى لمحت محمود يجلس متمعنًا أوراقًا أمامه وقد علت

وجهه ابتسامة ساكنة فقد كان وجهه مفعمًا بالبشاشة وهذا ما أطلق القلق في أساريرها.

حدجها محمود بنظرة واثقة ولكن لا تحمل أي معنى ثم أشار لها بالجلوس، فجلست وهي لا ترفع عينيها عن محمود وكأنها تحاول أن تعلم ما يدور في عقل ذلك المحقق وبعد وهلة قصيرة نظر لها محمود مبتسمًا ثم قال:

"كيف حالك مدام صفاء؟"

وكأن صوتها تعلق به شيء فسعلت ثم قالت:

"عفوًا، أنا بخير، أحمد الله على كل شيء"

– الحمدلله.

وهنا وقف محمود من مجلسه وسار حتى جلس في الكرسي المقابل لها وهو يرمقها بنظرة طويلة لا تخلو من الود ثم قال لها:

"قد يكون إنسان ما متهمًا بالقتل وقد يكون آخر متهمًا بالسرقة وقد يكون آخر متهمًا بالخيانة ولكن أخيرًا هي ليست أكثر من اتهامات تسقط إن لم تظهر الأدلة"

ثم قام من مجلسه مرة أخرى واتجه نحو مكتبه حيث حاولت صفاء في تلك اللحظات القليلة أن تهدئ من روعها ثم جلس محمود على كرسيه وهو يقول:

"الآن مدام صفاء، بماذا تشعرين بعد أن قبضنا على القاتل؟"

فجحظت عينا صفاء تملكتها الدهشة والذعر معًا ثم قالت:

"أحقًا أمسكتم به؟"

– عجبًا إنك لا تعرفين إذن، نعم فقد أمسكنا به وقد استدعيتك اليوم لأنبئك بذلك الأمر كما أننا عثرنا على الجثة ملقاة في أحد الأماكن المهجورة وغير المأهولة بالسكان.

فقالت بلهفة:

"من هو؟ وهل... هل تأكدتم أنها جثة زوجي؟"

فأومأ محمود برأسه قائلاً:

"نعم، فلقد تمت المطابقة بين بصمات الجثة وبصمات زوجك المثبتة لدينا كما أن فصيلة الدم تطابقت"

شعرت صفاء براحة تتخللها حيث نكست رأسها إلى الأرض وهي تأخذ نفسًا عميقًا ثم حولت نظرها إلى محمود قائلة:

"ولكنك لم تقل من هو القاتل؟"

– بالتأكيد ستعلمين كل شيء في الميعاد المناسب، فلقد أعلن عن خبر العثور على الجثة في الجرائد صباح هذا اليوم، حيث يبدو لي أنك لم تقرأي جريدة اليوم.

– ولا أي جريدة لأي يوم منذ ذلك الحادث الأليم.

وامتلأت مدامعها وقامت بفتح حقيبة يدها والتقطت منديلاً وهي تحاول أن تمسك عن دموعها وظهرت ابتسامة غامضة على وجه محمود وما أن شرعت بوجهها قالت:

"أشكركم كثيرًا، فلقد كنت في قمة الأسى والحزن والخوف من أن ينالني أنا الأخرى، ولكن ماذا كان دافعه، هل كان فقط من أجل السرقة؟"

– نعم بغرض السرقة، ولقد عثرنا على صندوق المجوهرات ولكن طبقًا لوصفك للمجوهرات المسروقة فهناك بعض القطع التي لم تكن بحوزته حيث يبدو أنه قد قام ببيعها.

كان يقول كلماته وهو ينظر إلى المجوهرات التي تتزين بها صفاء حيث شعرت صفاء بذلك فأشاحت بيديها خلف المكتب بحيث لا يراها محمود ثم قالت وكأن لسانها قد ذل:

"ومن قتل كريم؟"

وما أن أكملت كلماتها حتى شعرت أنه لم يكن ينبغي لها أن تصدر ذلك السؤال فابتسم محمود قائلاً:

"نفس القاتل بالتأكيد، فيبدو أن ذلك الشاب عديم الحظ قد تواجد في المكان الخطأ والتوقيت الخطأ وكما علمنا أنه كان كثير السكر والعربدة كما أنه غالبًا ما يخطئ الأبواب حين ذهابه إلى منزله مؤخرًا أليس كذلك؟"

- نعم هو كذلك دائمًا ولقد كان الحاج يفكر في طرده أيضًا في الفترة الأخيرة من المنزل نتاجًا لتلك الأفعال غير السوية حيث أنه أكثر من مرة تجاسر على قرع بابنا في الليل.

- أم، مفهوم... مفهوم.

تململ محمود في مجلسه ثم قال بعد لحظات من التفكير:

"إنني أحب أن أنصحك بنصيحة وعليك بالأخذ بها، فإن رؤسائي في العمل قد أشاروا على بذلك الأمر"

فقالت صفاء وقد شعرت بالطمأنينة حيث استحال شعورها تجاه محمود إلى الود والراحة لأول مرة:

"بالطبع تفضل"

- عليك أن تقومي بعمل إعلان وراثة حتى تستريحي من كل شيء ولا يظل الأمر معلقًا حيث أنك تعلمين أن في هذه الأمور الجميع يساوره الشك في كل شيء؟ وأنت بالكاد تعلمين مقصدي؟ وبالتأكيد كنت عرضة لبعض اللغو وما إلى ذلك وإن الإقدام على ذلك الفعل يدل على أنك سيدة حق وتودين أن تؤتي كل ذي حق حقه حيث أن إعلان الوراثة سيعزز منك في كل الأحوال فأنت تدركين أننا لا نعيش في هذا

العالم وحدنا، وسيتسنى لك أن تنتهي من تلك الكارثة بأقل قدر من الخسائر فيكفيك ما رأيت وكما تعلمين إن الإطالة في تلك المواضيع الحساسة تعرض صاحبها للكثير من الكوارث المتتالية.

فابتسمت مقتنعة تمامًا قائلة:

"سأقوم بعمل الإجراءات بمجرد خروجي من هنا"

فشكرها محمود وودعها قائلاً بابتسامة:

"خلال أسبوع ربما نطالبك لمرة أخيرة حتى ننهي كل شيء وحتى تكوني على علم بميعاد جلسة المتهم، كما أننا نود أن نعيد لك ما تبقى من المجوهرات المسروقة"

- بالطبع، في أي وقت، أشكرك بصدق على كل شيء.

- لا تشكريني، فأنا أقوم بواجبي ليس إلا.

خرجت صفاء وهي ترسم على وجهها ابتسامة ربما لم تعانقها منذ أمد بعيد، شعرت بالحرية الكاملة، بل بما هو أكثر من الحرية، حيث أشاحت حجابها ولبست نظارتها السوداء فتلاعب النسيم بأحبال شعرها وهي تسير تجاه سيارتها وقد بدت في تلك اللحظة وكأنها بنت العشرين التي وقعت في الحب للمرة الأولى.

بعد مرور خمسة أيام كان سالم ومحمود يتبادلان الحديث ويتشاركان القهوة في مكتب الأخير وكان محمود في تلك اللحظة خالي الوفاض لا يشغل عقله تساؤل واحد من كل تلك الأسئلة التي طالما أرهقته وأشعرته بالإعياء الشديد، كان يشعر بأن الصخرة الكبرى قد أزيحت من على صدره، ربما لشعوره الداخلي بأنه توصل لشيء ما ربما يقوده إلى وضع نقطة النهاية برضا كامل.

أطلع محمود – سالم – على كل شكوكه في الأيام المنصرمة وقد بدت السعادة والرضا على وجهه بما توصل له محمود ولشعوره بأن العدالة تأخذ طريقها الطبيعي، كان يعلم في قرارة نفسه أن كل شيء سيسير كما تمنى منذ أن علم بذلك الحادث الذي تغلف بالغموض.

على الجانب الآخر كانت تجلس صفاء وحدها تحسب ماذا ستفعل بكل تلك الثورة الطائلة ولكن لم ينس عقلها أن يأخذها في رحلة عبر حياتها التي شعرت من خلالها بالمضض والاستياء وعاهدت نفسها في هذه اللحظات بأنها لن تأخذ قرارًا يخصها دون الولوج إلى ساحة العقل وإعمال العقلانية، فإن كل قرار يرسم جزءًا ما من مصيرنا، فإن شخصيتها مركبة حيث أنها لا تعلم الخطأ من الصواب ولذلك هي ترى أن كل ما تفعله هو لأجلها فقط وإن ما تصدره من أقوال وأفعال هو لحمايتها ولإيمانها أنه حقها في الحياة، حيث أن هذه الشخصية لا تشعر بأي نوع من عذاب الضمير إن أقدمت على فعل خاطئ في صالحها ولكنها تشعر بالخجل من نفسها والحزن على نفسها إن لم يحرز قرارها مآربها.

واستمر المساجين الثلاثة يتشاركون وحدتهم، يتبادلون الحديث وقد أصر خالد على موقفه واكتفى بتهمة خيانة الأمانة وقد شعر بكل المرارة التي يمكن أن تجتاح إنسان ما، فأي شيء يمكن أن يكرب به أكثر مما هو ملاقيه؟! فلقد تأصل داخل نفسه أن العدالة أبدًا لا تسير وفق التخطيط ولكنها تسير وفق ما يقره الله، نعم وفق العدالة الإلهية، بينما شعر حسين في هذه اللحظة بأن ما مر به هو شفاء تام من مخاوفه القديمة، أدرك أن الأسرار جميعًا لا تدوم في عالمنا وأنها يومًا ستنكشف حتى وإن كان ذلك الاكتشاف قد يأتي من خلال جريمة، أدرك أن كل القوانين الأرضية ليست شيئًا أمام قانون السماء، لم يكن في وسعه أن يعمد إلى شيء آخر فقد نزعت نفسه إلى الهدوء والسكينة، وهو لم يعهدهما منذ أمد بعيد.

في هذه اللحظة كانت هناك نقرات استئذان لم ينتظر صاحبها السماح له بالدخول بل انطلق يعدو داخل الغرفة ثم حدد طرفًا في المحقق محمود قائلاً:

"لقد ترك أحدهم تلك الرسالة لك يا سيدي ولقد أخبرني بأن أعطيها لك"

- ألم يذكر اسمه؟
- لا يا سيدي.

لقد كان أحد رجال الأمن حيث نظر له محمود وسالم لبرهة قصيرة ثم سرعان ما التقط محمود الخطاب ثم أمره بالانصراف ونظر محمود لسالم وقد ظهرت على وجهه نظرة استفهامية حيث أن الخطاب لا يبدو عليه أنه صادر من أية جهة رسمية ففض الخطاب ثم اطلع عليه وكان سالم في تلك اللحظة يبتسم منتظرًا أن يعرف ما يحويه هذا الخطاب الغامض.

تغيرت ملامح محمود لوهلة قصيرة إلى الحيرة وسرعان ما تحولت إلى السكون والابتسامة العريضة فبادره سالم قائلاً:

"اطلعني ماذا لديك يا كازانوفا"

فضحك محمود عاليًا وهو يقول:

"ليس الأمر كما تتخيل صديقي العزيز"

- ولكن يبدو أن الخطاب قد بعث داخلك السعادة، فانبسطت أساريرك كما أرى.

فأشار محمود بيديه موضحًا وهو يقول:

"كل ما في الأمر أن هذا الخطاب فيه شيء ما يتعلق بقضيتنا وسأضمه للدلائل التي بحوزتنا حتى يكون كل شيء منظمًا لا تشوبه شائبة"

وبعد وهلة من الصمت تخللها إعمال التفكير من قبل الاثنين قال محمود متسائلاً:

"هل تسمع عن شيء اسمه فوجا؟"
فنظر له سالم بأعين متسائلة ثم قال:
"لا، لا أعلم، ماذا تقصد بالفوجا؟"
- تعني فوجا أو الفوغيـة أو ما يسميها البعض بالفرارية في علم النفس، حالة مرضية يسيطر فيها جانب من الشخصية مكبوت على الشخصية بكاملها. والمصاب بالفوغية يبدو حين تهيمن عليه هـذه الحالة وكأنه يعي أعماله وتصرفاته حتى إذا عاد إلى وضعه السـوي نسي كل ما أقدم عليه ولم يذكر منه شيئًا. والكلمة مأخوذة عن اللفظة اللاتينية **Fuga**.
- وما علاقتها بقضيتنا؟
- كل الصلـة يـا صديقي، ولكـن الفوجـا في حالتنا هـذه مختلفـة تمامًا وستدرك ذلك يوم التحقيق الأخير حين فك كل رموز الجريمة، وستعلم يا صديقي أن كل من له يد في هذه الجريمة هو حالة فوجية خاصة.
أومأ سالم برأسه متفهمًا ثم قال:
"ولكن أنت تقول أن المجرم ينسى؟"
- كما ذكرت لـك يا صديقي، إنهـا حالة خاصة فإن النسيـان في حالتنا يتمثل في قمـع الماضي مـن خلال تصرف قـوي وحـاد دون فكر كما سترى لاحقًا، حيـث أن كل متهم لدينـا كان ينسـى الماضي من خلال معالجة كبته في جريمة أو الاشتراك فيها.
فساد الصمـت لوهلة قصيرة حيث قدح سالم زناد الفكـر ثم قال وهو ينظر إلى محمود:
"سنرى ذلك ولكن هل تعتقد أننا سننجح في كشف الحقائق كاملة؟"
- أنا متأكد من ذلك.

فقال سالم وهو يهم بالخروج:
"أتمنى ذلك ولقاؤنـا يوم الأحـد هنا، فإنهـا فرصتنا الأخـيرة لإنهاء تلك القضية بالكامل"
- لا تقلق يا صديقي وكن على يقين أننـا بالفعل سنضع النهاية في نصابها وفي مكانها المنشود.

[٢]

كان ياما كان، كان هناك قاتل... لحظة من فضلك، إن كان ياما كان هي الجملة المثلى التي ترتبط بقصص الأطفال والخرافات والأساطير، وأن كلمة "قاتل" هي كلمة للبالغين فقط، فكيف ترتبط تلك الجملة التي تشعرنا بأن ما يأتي بعدها مطمئنًا عذبًا يذكرنا بأجمل أيامنا بكلمة قاتل التي لا توحي سوى بالتوحش والجريمة، فبما أننا نعيش في ذلك العالم حيث يحمل كل منا في داخله الحلم والواقع، الخيال والحقيقة، عقل في الماضي البريء وعقل آخر في الهاوية، فأرى أنه قد جاء الوقت لأقص قصتي كما ينبغي أن تكون، كان ياما كان كان هناك قاتل... لن أرهقكم بالتفاصيل ولكن دعونا نستكمل روايتنا.

كان محمود في تلك اللحظة يجلس على مكتبه كملك متوج يحتسي قهوته وهو يتابع أوراقه بشغف وترقب شديدين، يراجع أدق التفاصيل وبدا أنه يرتب كل تلك الأوراق في ذهنه وينظر للرسومات التي أطلقتها أفكار يديه خلال التحقيقات والبحث بتمعن ودهاء ويرسمها هي الأخرى في المنطقة المناسبة من عقله الرشيد بينما كان يجلس سالم شاردًا تخالجه الأفكار من وقت لآخر يحتسي قهوته في سكون وصمت شديدين ولا يكسر ذلك الفراغ سوى دخان السجائر الذي أعطى للمكان شكلاً دراميًا للغاية، وهنا هب محمود يقف من مكانه قائلاً لسالم:

"أظن الوقت قد حان لبدء مبارتنا الأخيرة"

أومأ سالم برأسه بالموافقة دون أن ينبس ببنت شفة فأردف محمود بنبرة آملة:

"ليلهمني الله لأكون نصيرًا للعدالة"

وهنا أمر محمود رجل الأمن بأن يأتيه بالمتهمين والشاهدين وكذلك صفاء حيث بدا أن جميعهم كانوا في حالة ترقب لإشارة محمود وقد بدت صفاء في حالة من الخوف والترقب الشديدين بل إن الفزع قد نال منها، فهي لم تكن على علم بأن حسين له صلة بالقضية، ولم تكن لتتخيل بأن خالد قد يزج أنفه في تلك القضية وثار عقلها يردد الأسئلة تباعًا ولكن بدت أسئلتها كصدى صوت لا يعود بشيء سوى نفس الأسئلة.

ابتسم محمود حين رؤيتهم جميعًا ابتسامة باهتة ونظر لهم جميعًا وهم يقفون بجوار بعضهم البعض حيث كانت تبعدهم صفاء بخطوة واحدة ثم قال محمود وهو ينقل طرفه بينهم:

"أنتم جميعًا بالكاد تعرفون من هو القاتل"

ثم سكن للحظة وهو يتابع ردود الأفعال على وجوههم ثم استطرد قائلاً:

"أو بالأحرى معظمكم يعلم من هو القاتل"

ساد الصمت للحظات حيث بدا أن كلاً منهم لديه أفكار مختلفة لا تتطابق مع أفكار الآخرين وهنا استرسل محمود يقول:

"أيها السادة أعيروني انتباهكم فنحن لن نخرج من تلك الغرفة دون أن نتم كلماتنا الأخيرة ولنبدأ بحسين..."

فنظر له حسين طويلاً وقد وضح عليه الوهن والإعياء ولكن لم يبد عليه الخوف من ثمة شيء فهو قد أوكل أمره إلى الله، وقال محمود وهو يستخدم يديه في الشرح ويزرع الغرفة جيئة وذهابًا:

"إن حسين هذا الشاب الذي أعتبره حالة خاصة جدًا في قضيتنا هذه شعر

بالوحدة الشديدة فاعتقد أنه الوقت المناسب ليستعين بحجة دفع الإيجار ليجد من يؤانسه وحدته حتى لـو كان للحظات قليلة ولكن فوجـئ حسين بأن باب شقة الحاج إسماعيل مفتوح وهذا ليس من عادته وطبقًا للحس الفضولي العارم الناتج عن وحدته البائسة فقد قام بالتقصي وسرعان ما سمع صوت تأوه فانطلق بفضوله ليعلم مصدر الصوت واتضح له فيما بعد أن الحاج إسماعيل هو المصدر وقد بدا له أنه غارق في دمائه حيـث أن الحاج إسماعيل تخيل أن القادم هو كريم وليس شخصًا آخر بكل تأكيد وحتى يقلل من حمـأة غضبه القادم به لأجل قتله و لم يكن الأمر هينًا على أي شخص لـيرى إنسانًا ينازع الموت فلذا أتت بحسين جميع الأفكار المخيفة ولكن باغتها بالتصدي، ومن ثم وأثناء خروجه للإبلاغ عن الحادث تعثرت قدماه وتعرقلت ونتيجة لذلك تكسرت إحدى أواني الزرع – المزهرية الزجاجية – ولكنه في سرعة تامة قام بتجميع ما يمكن تجميعه بجانب الحائط وذهب إلى شقته باحثًا عن هاتفه ليبلغ الإسعاف"

ونظر محمود طويلاً لحسين وهو يبتسم ثم قال:

"طبقًا لهذه الأقوال التي تأكدت صحتها لدينـا رأيت أن القاتل كان مازال موجـودًا وإلا لَمَ لم يجهز على الحـاج إسماعيـل إن كانت نيته القتـل؟! و لَمَ لم يجهز عليه إن كانت نيتـه السرقة حيـث سيصبح هناك دليل ضـده وهو شاهد الواقعة صاحب المنـزل – المجني عليـه –؟! ولكن يـبدو أن قاتلنـا كان مازال موجودًا وهذا ما أكدته أقوال حسين أنه عندما كان في منزله يبحث عن الهاتف سمع أصواتًا في شقة الحاج إسماعيل، أصوات أقـدام أحدهم، أليس كذلك يا حسين؟"

فأومأ حسين برأسه بأسى قائلاً:

"نعم"

– وعندما ذهب حسين إلى الشقة متصـورًا أن هناك من سيقوم بمساعدته ولكن بـاءت تصوراتـه بالفشـل حيـث لم يجد أحـدًا ولكنـه لم يولِ الموضوع اهتمامًـا وقادته طيبتـه إلى الاطمئنان على الحـاج إسماعيل وبالطبع إن صوت الأقدام قد حال دون انتباه حسين حيث أنه لم يتصل بعد بأي جهة مساعدة حتى ذلك التوقيت، ومن هنا نستنتج أن هناك من كان في المنزل، وقد بنيت استنتاجاتي الأولى على تصور وجود شخص آخر قد عقد العزم على السرقة أو القتل في تلـك الليلة ولكنه عندما جاء إلى المنزل ووجد ما وجد هرب مسرعًا حتى لا تطوله الجريمة"

وساد الصمت للحظة وهو ينقل طرفه بينهم ثم قال:

"لقد كنت مخطئًا للغاية، فإن صاحب تلـك الأقدام هو كريم – رحمه الله – فقد ثبت لدينا أن كريم كان شابًـا مستهترًا للغاية عربيدًا سكـيرًا وغالبًا ما يوقظ السكان في الليل من خلال نقره الأبواب بالخطأ ليلاً، ولكن السؤال لم عاد كريم في هذا التوقيت بالذات؟! أعني مبكرًا؟!"

ثم نظر لسالم وصمت لوهلة وجيـزة وسرعان ما نقل طرفـه إلى خالد وهو يقول:

"لقد أخطـأ كريم قبل الحادث بأيـام عندما قرع باب حسـين ولأن حسين وحيد فقد استبقـى عليه ليؤانسه من مبـدأ سد الفراغ الـذي يعيشه، ومن جهة أخرى فإن كريم لـن يتذكر كلمـة واحدة من تلـك المناقشة، فلا ضير إذن من اكتساب بعض المؤانسة حتـى لو كانت تلـك المؤانسة مع سكـير، وقال كريم لحسين جملة شهـيرة في قضيتنا تلك وهـي "لقد وجدت الطريـق لأعيش كما ينبغي، الطريق بلا ترنح، وجـدت وجهة عاصفتي" فما الـذي كان يعنيه كريم من جملتنا هذه؟! بالتأكيد إنه كان يدبر لشيء ما سيغير مجرى حياته التي لا تعني

شيئًا، فإن ما حدث أن كريم كان قد دبر كل شيء السرقة أو القتل ولكن طبقًا لما لدي هنا من دلائل فإنه كان يدبر للاثنين معًا وقد تصورت في بداية الأمر أن كريم قد قتل الحاج إسماعيل وكان يبحث عن شيء ما، ولما شعر بحسين توارى في إحدى الغرف وبالطبع حسين لم يلحظ ذلك لأنه كان مشوش الأفكار للغاية لا يفكر في أي شيء آخر سوى إنقاذ الحاج إسماعيل، هـذا ما تصورته أيضًا في البداية، ولكنني كنت مخطئًا للغاية"

توقف محمود فجأة وهو ينظر إلى صفاء نظرة طويلة ذات معنى ثم قال:

"إن السيناريو لم يكن كذلك على الإطلاق، فإن كريم قد أتى متأخرًا بعد أن قام شخص ثالث بقتل الحاج إسماعيل ويبدو أن كريم رأى حسين وهو يخرج من الشقة حين مجيئه لينفذ مخططه ولكنه فوجئ بخروج حسين من الشقة فتوارى على السلم ليتابع الأمر دون أن يلمحه الأخير أو يشعر به ويبدو أن كريم قد استحوذت عليه فكرة أن حسين هو من قتل إسماعيل لسبب ما"

واستدار محمود وهو ينظر إلى خالد ثم استطرد يقول:

"فهم كريم بالدخول إلى الشقة وأخذ صندوق المجوهرات في هذه اللحظات القليلة التي كان حسين فيها يبحث عن هاتفه ثم خرج من الشقة واختفى في مكان ما على السلم يستطيع من خلاله أن يتابع ما يجري دون أن يلحظه حسين، وعندما خرج حسين بعد أن وجد هاتفه ودلف إلى شقة الحاج إسماعيل ليتقصى حالته، دخل كريم إلى شقة حسين ووضع صندوق المجوهرات في شقة الأخير حيث يبدو أنه كان يريد الاحتفاظ بالصندوق ولكن عدل عن رأيه تقريبًا في اللحظة الأخيرة، فلو كان احتفظ به لتبين لنا ذلك فيما بعد، كما أن مخطط كريم وضح من تحرياتنا أنه لم يكن بغرض السرقة وإنما كان يدبر للقتل فقط ولكن مسألة صندوق المجوهرات ستكون مجرد تضليل

للعدالة ليس إلا وقد تأكدنا من ذلك من خلال مطابقة البصمات الموجودة على الصندوق ببصمات كريم، حيث أن كريم في هـذه الحالة قد ارتكب جريمته عن طريق حسين الذي قدم له أكبر خدمة دون أن يدري فـأراد أن يثبت عليه التهمة من خلال صندوق المجوهرات؟!"

وصعد محمود ببصره في صفاء طويلاً واسترسل يقول:

"وخرج مرة أخرى مسرعًا تجاه شقة الحاج إسماعيل ليتهم حسين بالقتل وما كان من حسين المصاب بهستيريا الحادث ولأسباب نفسية قديمة عالقة في نفسه منذ طفولته شعر بالظلم الشديد فحاول أن يرفع التهمة عن نفسه ولكنه رفعها بجريمة قتل لم يتعمدها، فهو لم يكن في كامل وعيه الطبيعي وقد قتله حسين مستخدمًا إحدى قطع المزهرية المتكسرة سلفًا بطعنات متعددة في صدره"

وساد الصمت للحظات حيث تعانقت النظرات المرتجلة وساد في النفوس أرق شديد وخوف غريب وهنا قال محمود فجأة بصوت يقطع كل شك:

"ولكن هذه ليست كل الحقيقة"

فنظر له الجميع بتعجب بينما جحظت عينا حسين فأردف يقول:

"طبقًا لتقرير الطب الشرعي فإن كريم قد توفي إثر كسر في عنقه كما أن الطعنات التي نالها كريم من حسين لم تكن سوى طعنات أحدثت جروحًا سطحية ولكن أصيب كريم بالإغماء من هول المفاجأة، وطبقًا لأقوال حسين التي تأكدت صحتها لدينا بأنه لم يكسر عنقه على الإطلاق كما أنه تأكد لدينا بأن كسر العنق أتى بعد أن تمت عملية الطعن بدقائق وهذا ما يعني أن هناك قاتلاً آخر"

وهنا وقف محمود نصب خالد ناظرًا إلى عينيه حيث نكس خالد رأسه يائسًا فأشاح محمود ببصره وهو يقول:

"إن قاتلنا ذكي للغاية أيها السادة، ساعدته الظروف رغم أنه لم يتخيل أبدًا أن تسير المسألة بهذا الشكل حيث أن تواجد حسين في المكان والوقت غير المناسبين حال في بداية الأمر دون جريمته المتقنة ولكن تواجد حسين وشروعه في قتل كريم قد خدماه كثيرًا، إن قاتلنا قد دبر لكل شيء بحكمة ودهاء وكان خطأه الوحيد أنه قتل كريم ومن هنا جاءت شكوكي، حيث أن القاتل الحقيقي للحاج إسماعيل كان يختبئ بالفعل في إحدى الغرف الأخرى وكان يعلم تمامًا أن الحاج إسماعيل لن يمكث طويلاً بعدما أطلق عليه غضبه ولكنه كان يبحث عن شيء ما وتواجد حسين قد حال دون ذلك فاختبأ ومن ثم دخل كريم أيضًا الذي كان يدبر لشيء ما هو الآخر وحدثت المعركة التي أودت بحياته ولكن حين خروج قاتلنا وجد أن الشاهد الوحيد على جريمته وهو كريم مازال حيًا فخاف من ذلك فأجهض عليه حتى لا يترك خلفه أي نوع من الخيوط التي تقودنا إليه، أليس كذلك يا خالد؟"

كان يقول السؤال وهو يحدجه بنظرة ثاقبة بينما نكس خالد رأسه وهو يتمم بكلمات غير مفهومة ولكنها توحي بأن هناك شيئًا ما يختلج في صدره ولكنه لا يريد الاعتراف به واسترسل محمود يقول:

"إن خالد هو الابن الروحي للحاج إسماعيل ولكن الحاج إسماعيل في أيامه الأخيرة كان يشعر بالخوف من شيء ما فأقدم على عمل وثيقة تأمين على حياته بخمسة ملايين جنيه، نعم إنه لرقم كبير بالفعل يثير الشكوك، وطبقًا لأقوال الشهود والتحقيقات فإن هناك شجارًا عنيفًا قد نشب بين الحاج وخالد بل إن الحاج قد أوكل لزوجته صفاء - ونظر لصفاء - بشأن هذا الأمر كما أن ذلك الأمر لم يكن يعلمه سوى خالد وحده، حيث قامت هي بدفع قسط التأمين كما كان يفعل خالد سابقًا، فشعر خالد أن شبابه المهدر في خدمة والده

قد ذهب بلا جدوى، شعر أن الحاج أوشك على الإقدام باستئصال صلاحياته التي لا تقدر بمال ومن هنا قرر خالد أن ينتقم لشبابه وأنتم تعلمون أيها السادة ما معنى أن يذهب شبابنا بلا جدوى، ما معنى أن نعمل بجد ولا نحصد شيئًا، أظن أن ذلك دافعًا قويًا للانتقام!"

وصمت محمود لوهلة ثم قال وهو يجلس على إحدى حواف مكتبه موجهًا نظره لخالد:

"ولم يكتفي خالد بذلك، بل إنه حاول أن ينبه العدالة لوجود وثيقة تأمين وأنه لا أحد يعلم بها سوى هو ومدام صفاء، أي ان خالد يحاول أن يلفت أنظارنا إلى أن الدافع الحقيقي وراء القتل هو المال وبالتحديد وثيقة التأمين ومن البديهي أنه ليس من أقرباء الحاج، فتشير أدلة الاتهام في هذه الحالة إلى مدام صفاء، ومن ثم قام خالد أيضًا بالانتقام من خلال إخفاء الجثة حيث أنه في تلك الحالة لا تستطيع مدام صفاء أن تحصل على قرش واحد في ظل اختفاء جثة زوجها الدليل المؤكد على وفاته"

وهنا نظر لمدام صفاء طويلاً وهو يبتسم لها ابتسامة مواساة ثم استطرد يقول:

"هذه المرأة البريئة التي عانت من أجل ذلك الرجل العجوز والتي لم تكن حاضرة في وقت الحادث، هل يكون الرد على إخلاصها باتهامها بهذه الجريمة البشعة؟! فهي تبدو ودودة للغاية ولا تستطيع الإقدام على أمر كهذا وقد كان هذا واضحًا عندما رأت جثة كريم؟ ولكن مدام صفاء كان رد فعلها واضحًا للغاية"

ثم صمت للحظة وقد تحولت نظرته إلى الحدة ثم قال بلهجة صارمة:

"كان رد فعلها مفضوحًا، حيث أولاً أنها ادعت قبل أي شيء مقتل الحاج

إسماعيل دون أن ينتبها أحد بذلك، ثانيًا إن مدام صفاء وكما ثبت لدينا على علاقة غير شريفة بكريم، وهذا ما ثبت لدينا أيضًا، وكان ذلك واضحًا من خلال ردة فعلها عندما رأت جثته وهذا ما يشير إلى وجود شيء آخر! فلقد استخدمت ذلك الشاب البائس في التدبير لجريمتها"

وهنا حاولت مدام صفاء أن تتحدث قائلة:

"إنني... إنني..."

فقاطعها محمود بإشارة حازمة من يده وهو يقول:

"إن المجوهرات المفقودة من الصندوق كما ثبت لدينا هي نفس المجوهرات التي كانت ترتديها يوم الحادث، وهي نفسها التي كانت ترتديها في آخر تحقيق تم معها ويبدو أن الغريزة النسائية المتعلقة بأمور الزينة قد قضت على ذكائها في هذه اللحظات، كما أنها أخبرتني في التحقيق الأول أنها تتابع القضية من خلال الجرائد وفي التحقيق الأخير قد أدلت بالعكس وهذا ما يؤكد تناقض أقوالها، كما أنها ذهبت لشركة التأمين لتدفع القسط حيث أن أحدهم قد أخبرها بأن عليها أن تقوم بذلك وإلا ذهب كل ما سعت إليه عنان السماء، ولم تكن تدري أن هاتفها تحت المراقبة، فما الذي يدعو مدام صفاء لإثارة كل ذلك الاهتمام بوثيقة التأمين؟ وأية امرأة زوجها مقتول وتجتاحها الأحزان والمخاوف تقدم على هذا الفعل بكل برود وطمانينة؟!"

ساد الصمت وهو ينقل طرفه بين الجميع حيث سادت ملامح التعجب والدهشة وشمل ذلك سالم أيضًا الذي كان شغوفًا يراقب بتأن ما يقوله محمود، كان يتابعه بدقة سعيدًا بكل معنى الكلمة فهو لم يتوقع ذلك على الإطلاق

واسترسل محمود يقول وهو ينظر من الشرفة بهدوء وصوت خفيض:

"خالد لديه دوافعه، صفاء لديها دوافعها، خالد تواجد بالفعل في مكان

الحادث؟ ولكن السؤال؟ هل بالفعل فعل كل ما قلته؟! وصفاء التي نالت من كريم ودبرت كل شيء، واختارت اليوم المناسب وهو اليوم الذي تفتح فيه أحد المحال الكبيرة فتحدث الجلبة فلا يعير أحد اهتمامًا لما يجري، لن يكون أحد متواجدًا بالمنزل بجانب أنها ستغيب عن المنزل لتعطي المجال للقاتل ولتبعد الشبهات عن نفسها، وقد ثبت أنه لم يحدث أي اقتحام للشقة، وهذا يعني أن القاتل يملك مفتاحًا، هل هو خالد الأمين صاحب مفاتيح أسرار القتيل؟! أم صفاء الزوجة المخلصة؟! لا أعلم ولكن أنا لدي دليلاً قاطعًا لأنهي تلك المسألة بالكامل لنعلم من هو القاتل الحقيقي للحاج إسماعيل وكريم، من هو ذلك الداهية الذي فعل كل شيء؟ قتل وسرق وحاول أيضًا أن يزج بمظلوم في السجن، من هو صانع السيناريو؟! من هو ذلك المخرج العظيم؟!"

[٣]

انطلق محمود يعدو تجاه باب الغرفة وقام بفتحها وجاء وهو بين يديه رجل ما ودخل به وهو يقول:

"هذا هو الدليل القاطع"

جحظت العيون ووقف سالم مندهشًا وتناقل الجميع النظرات بتعجب وحيرة وشعرت صفاء بالغثيان بينما نكس خالد والشاهدان الرأس ثم قال محمود:

"الحاج إسماعيل، هو الدليل القاطع"

نكس الحاج إسماعيل رأسه ثم قال محمود:

"إليكم السيناريو الحقيقي للجريمة أيها السادة؛ إن الحاج إسماعيل كان يعلم بخيانة زوجته وقد علم أيضًا أنها لا تخونه مع كريم فقط وإنما تخونه مع أشخاص آخرين ولكن السؤال الآن هل الخيانة فقط هي ما دفعتك لكل ذلك؟"

ساد الصمت للحظة حيث نكس الحاج إسماعيل رأسه ثم قال:

"لا، وإنما علمت أنها تنوي قتلي"

- وكيف علمت ذلك؟
- لقد قمت بمراقبة مكالماتها التليفونية عن طريق جهاز تسجيل المكالمات عندما تأكدت من خيانتها ولكن تطور الأمر فيما بعد ليتضح لي أنها تنوي قتلي.

فأومأ محمود برأسه متفهمًا ثم قال مستخدمًا يديه على سبيل الشرح:

"ومن هنا أقدم الحاج إسماعيل على تلك الجريمة انتقامًا لشرفه ودفاعًا عن نفسه ودبر لها مستعينًا بخالد ابنه الروحي الذي عارضه بخصوص ذلك القرار الإجرامي واشتعلت بينهما مشاجرة التي تحدثنا عنها سابقًا كما أنه استعان أيضًا بالشاهدين اللذين كانا مدينين له بأموال طائلة كما تبين لدينا أيضًا وليقنع العدالة بأنه توفي بالفعل، فإن ما حدث كالتالي"

صمت لوهلة طويلة وكأنه يحاول ترتيب أفكاره قائلاً:

"لقد عمد الحاج إسماعيل إلى وضع كيسًا من الدم الخاص به في إحدى المستشفيات في حالة إن احتاج إليه وذلك بحجة ظروفه الصحية وبالتالي لن يشك أحد في هذا التصرف واستخدمه فيما بعد لكي يظهر لنا أنه مات بالفعل، وقد علم عن طريق مراقبته لزوجته أنها أقدمت على قتله كما سمعنا الآن ولقد عمد إلى وثيقة التأمين لتكون دافعًا في قضيتنا هذه وما تبين لنا أن تلك الوثيقة قد صيغت لحق زوجته صفاء حيث ستكون هي المستفيدة الوحيدة وبالفعل التقطت صفاء الطعم ودبرت كل شيء مع عشيقها كريم، ولكن ظهر حسين في القصة وكان تواجده في بادئ الأمر يعوق تلك الخطة المحكمة ولكن سرعان ما تبدل الأمر وقتل حسين كريم ولكن تبين أن كريم لم يمت بعد، فقام الحاج إسماعيل من مجلسه خلال الدقائق التي تخللت اكتشاف الجريمة ومغادرة الشاهدين وهروب حسين إلى شقته وقام بالفعل بقتل كريم عن طريق كسر عنقه انتقامًا لشرفه ولحفظ ماء الوجه، وقد تبين ذلك من كشف الـDNA وهذا ما جعلني أشك في تلك المسألة فقد قلت في نفسي أن ربما كريم قد اقترب من جثة الحاج ليتفقدها ويتأكد من موته ولكن كان هناك هاجس آخر يتراءى لي، بأن هناك شيئًا غير مكتمل وهو هل إذا رأى كريم الحاج إسماعيل

مقتولاً فهل يقدم على محاولة لمسه؟ لا أظن ذلك ومن هنا شرعت شكوكي في البحث عن الحقيقة حيث بالفعل كان هناك شخص آخر يختبئ ويتابع الأحداث لكي يكمل الجريمة كما ينبغي وهو خالد"

وصمت للحظات وهو يربت على كتف الحاج إسماعيل ويوجه طرفه إلى خالد قائلاً:

"حيث جاء خالد بالحاج إسماعيل وهو يجره على الأرض تجاه السلم المؤدي إلى أسفل ليتبين لنا من خلال الدماء أن القاتل قد أخذ الضحية معه، ثم قام الاثنان بالصعود إلى السطح والتنكر بملابس أخرى وغادرا من خلال المبنى المجاور بالتسلل من خلال السطح، أليس كذلك يا حاج إسماعيل؟"

امتعض إسماعيل منكسًا رأسه قائلاً:

"نعم، بالضبط هو كذلك"

واستطرد محمود يقول:

"والهدف من كل ذلك، أولاً إعاقة مسار العدالة بحيث أننا سنكتشف خيانة صفاء فيزج بها في السجن طبقًا للأدلة التي لدينا وأنها دبرت لقتل زوجها بما أنها المستفيد الوحيد من وثيقة التأمين، كما أن الحاج كان يدبر منذ البداية لمقتل كريم وكان عليه الهرب لأن المسألة ستنكشف آجلاً أم عاجلاً وهذا السر وراء اختفائه، كما أنه لو تبرأت صفاء فإنها لن تطول أي شيء لاختفاء جثة إسماعيل ولن تستطيع شركة التأمين طبقًا لقوانينها أن تعطيها قرشًا واحدًا لأنه لا وجود لجثة على الإطلاق تؤكد الوفاة بشكل قطعي كما أن سيبقى الحال على ما هو عليه بالنسبة لممتلكات الحاج إسماعيل ولن تستفيد شيئًا سواء أكان من الممتلكات أو من وثيقة التامين"

ابتسم محمود قائلاً للحاج إسماعيل:

"لقد دبرت كل شيء بحكمة يا حاج إسماعيل، إنني أغبطك على ذكائك، ولكن لدي ثلاثة أسئلة دون إجابة:

"لماذا أقدمت على الظهور، فكان باستطاعتك أن تهرب؟"

نظر له إسماعيل لوهلة ثم قال بأسى وحزن:

"لقد علمت بشأن خالد وأنه سيحاكم بالجريمة وأعلم أنه لن يقدم على البوح بالحقيقة وربما سيساق إلى حبل المشنقة وكل ذلك إخلاصًا لي كما أنكم في الجرائد لا تقولون أسماء بل تقولون قبض على شخص ما دون الإدلاء باسمه وما فهمته أن لديكم متهمًا آخر، فشعرت بالظلم الذي سيجتاح المظلومين، فأنا أعلم طعم الظلم جيدًا، فلقد عشت بما يكفي ولن أنهي حياتي بهذه الطريقة"

- وما هي الخطة بالضبط التي كنت ستتبعها؟

ظهرت في عيني الحاج إسماعيل لمحة من الذكريات وبعد وهلة من التفكير قال:

"لقد اتفقت أنا وخالد على أن يأتيني في المنزل قبل الحادث وحين خروج صفاء كما اتفقت مع خالد وحتى يكون بجواري ربما يحدث ما لا يحمد عقباه ولقد استخدمنا كيس الدم كما ذكرت ثم قام خالد بالاختباء وكنت متفقًا مع الشاهدين على أن يأتوا في ميعاد محدد ليجدوا كريم في شقتي وأنا بين الحياة والموت فيمسكوا به لارتكاب جريمة القتل ثم أختفي أنا وخالد ومن بعدها ستعلم الشرطة الحقيقة بالتأكيد من خلال كريم، فأنا أعلمه نذلاً ولن يرتضي بأن يتحمل العقاب وحده كما أن اختفائي سيحرم صفاء من الميراث في حالة أن تم تبرئتها من الجريمة"

- ولكنك لم تفكر في أمر اختفائك بالشكل الجيد حيث أننا في هذه الحالة سنبحث عن ضلع ثالث أخفى الجثة، أليس كذلك؟

نكس رأسه وهو يقول بصوت خفيض:

"ليس هناك جريمة كاملة"

تنهد محمود وهو يومئ برأسه متفهمًا ثم قال:

"ولماذا أقدمت على التضحية بحياتك والاختفاء إلى الابد؟ ما الذي يدفع إنسان أيًا كان الدافع أن يفعل ذلك؟!"

فتجشأ إسماعيل بالبكاء ثم قال وهو يحاول أن يمسك عن دموعه قائلاً حيث ساعده محمود في الجلوس:

"لقد كنت أحبها بجنون، أعطيتها كل شيء، أخذتها من الفقر إلى الغنى، حولتها من مجرد إنسانة متسكعة لا قيمة لها إلى شخص مرموق ذات أهمية، لم يكن يهمني في حياتي سوى إسعادها هي فقط، كنت أعيش فقط لأجلها، ثم في نهاية الأمر تخون كل ذلك، تخون رجلاً كبيرًا وتستخف به وبمشاعره، فأعماني الشيطان، وقد كان ما كان"

فأغمض محمود عينيه لبرهة من الوقت رافعًا رأسه وكأنه يتأمل تلك الحياة، بدا المحمود وكأن العالم توقف بعد أن أنهى إسماعيل كلماته، ثم نظر للجميع وهو ينادي على رجل الأمن، خذهم جميعًا إلى السجن.

عندما خرج الجميع نظر محمود من النافذة وهو يقول حيث وقف خلفه سالم:

"نعم يا صديقي، إن المجني عليه هو الجاني"

[٤]

هل انتهت روايتنا؟! سؤال قد يطول النظر إليه، وهل يعني اكتشاف كل الخيوط أن كل شيء سيذوب ويذهب في طي النسيان؟ وهل تملك الجريمة في نفوسنا جانبًا ما ولا ندري؟!

لقد انتهت رحلة حسين هنا في هذه النقطة حيث أدرك أن الأسرار جميعًا سيأتي يوم لها وتفتضح، فقد تأكد أن الظلم أبدًا لا يدوم وتأكد في قرارة نفسه انه سيأتي اليوم الذي سيخرج فيه من خلف تلك القضبان إنسانًا آخر وتمنى في هذه اللحظة لو أن له عائلة فليست كل النساء صفاء، فهناك حفنة قليلة تشبه أمه التي اكتشفت براءتها على أيدي القانون بل على أيدي العدالة الإلهية، إن الأمر برمته يشبه في تصوره الكوميديا الباكية، فلقد ضحك كثيرًا في زنزانته وقد تعجب الجميع من ذلك لعبراته الساقطة وهو يضحك، فإنه يعي جيدًا أن - الفوجا - تكونت لديه خلال سنين حياته البائسة والاتهامات الباطلة التي نالت من كرامته وكبريائه وآدميته كإنسان فجعلته مكبوتًا بالقدر الذي جعل منه مجرمًا إن شاء ذلك، ولكن ما أعلمه جيدًا أن حالة - الفوجا - التي تعرض لها حسين لن تعود أبدًا حيث وجدت لها سبيلاً لكي تنتهي في ظل جريمته غير المتعمدة وتبرئة جزء منه يتمثل في أمه كما أن الكبت انصهر مع بقعة الدماء التي غرق فيها كريم، فإن كان الهروب الكبير كان من العالم إلى داخله؟ فإن دواخله قد انفتحت على العالم لينتهي الهروب للأبد.

أدرك خالد أن ليس كل الإخلاص محمودًا بل إن ما فعله ليس أكثر من جريمة لا تمت للإخلاص بأي شيء، أدرك أن جميع أنواع الحب مصابة بالعمى وأن العمى دائمًا ما يقودنا إلى الهاوية ورغم علمه أن البصيرة ليس لها علاقة بالبصر إلا أنه أجزم أن حبه لوالده الروحي قد أعمى بصيرته وبصره معًا ولكن تبقى داخل خالد سؤال لم يحصل له على إجابة قاطعة شافية؟ هل ما فعله كان لأجل الحاج إسماعيل أم لأجل شيء أخر؟! وهذا ما جعلني أرى أن حالة – الفوجا – داخل خالد تختلف كل الاختلاف عن أي حالة فوجا أخرى لأبطال روايتنا فإن خالد كان يهرب داخل أب ولكن ليس بالدم، كان يرى أن أفعاله التي يقوم بها لأجل أبيه هي واجبة التنفيذ كحكم الدين، فإن مرض خالد بحبه لأبيه هو ما جعل منه مكبوتًا في صومعة لا يمكن الخروج منها إلا عن طريق جريمة إذا كان يملك أبًا مثل الحاج إسماعيل ويدور السؤال بخلدي قويًا هل انتهت – الفوجا – بالنسبة لخالد أم هناك جزء مازال عالقًا بين جنباته رغم سقوطه الحاد الذي سيودي بشبابه ربما إلى أجل غير مسمى؟!

كان إسماعيل في تلك اللحظات غير حزين بالمرة بل بدا عليه الاطمئنان والهدوء التامان، فقد كانت نفسه المجنونة بعشق صفاء راضية ولهة لأنها تعلم أن صفاء تمكث خلف القضبان، فشعر بالاطمئنان والمؤانسة، لم يحزن على الجريمة التي ارتكبها و لم يشعر بوخز الضمير لإساءته لخالد المخلص ولا لحسين المظلوم ولا للشاهدين المغلوبين على أمريهما وعلم في لحظة ما خلال إعمال فكره وإثارة ذكرياته أن ظهوره واعترافه بجريمته لم يأت أبدًا لأجل المظلومين ولكنه خاف أن تزج صفاء في السجن ولا يراها مرة أخرى، نعم تأكد أن تلك هي الحقيقة وتأكد أيضًا وهو يهز رأسه ببطء شديد أن الحب أحيانًا يخلق منا وحوشًا أنانيين، فهو الآن ليس أكثر من الوحش الذي أحب الجميلة بأنانية

وبصيرة عمياء، الحب الذي خلق لديه أقوى حالات – الفوجا – والذي حول أنانيته إلى جريمة منكرة بكل المقاييس فلقد ساق معه العديد من الأبرياء إلى ما خلف القضبان والمجهول، الكبت العاطفي الذي لم يخرج منه أبدًا رغم امتلاكه لصفاء ولكنه في وقت لاحق علم أنه لم يملك سوى الجسد.

كانت – الفوجا – تسيطر عليه بقوة حتى أفقدته حالة الوعي وتملكت من شخصيته الحقيقية وقد يبدو المعرض للفوجا واعيًا ومدركًا تمامًا لما يقدم عليه من تصرفات ولكن الحقيقة أن الجزء المكبوت في داخله هو ما يقوم بكل شيء ورغم عودة الحاج إسماعيل إلى رشده إلا أنني أجزم بأنه لم يخرج منها حيث كان واضحًا أنه لم يندم و لم يشعر بالخزي ولكن ظل العمى والكبت يهيمنان عليه، فقد جاء قرار تسليم نفسه للعدالة من منطلق أن لا حياة دون صفاء، فلقد انتصر على أحد الخائنين الذين حاولوا الاستيلاء على حبه وهو كريم، ولكنه أبدًا لن ينتصر على حالته الفوجية التي ستظل عالقة به خلال ما بقى من عمره القادم والضائع خلف القضبان.

رغم أنها لا تعرف الخطأ من الصواب ورغم أن اعتقادها أن أي فعل يصدر منها لا جدال فيه ولا يجب أن تحاسب عليه، إلا أن وعيها في هذه اللحظة تعلم شيئًا ما أصابها بالصمت التام، تعلمت أن ليست كل الأفعال من حقنا ولكن هناك أفعال إن امتدت لتمس الآخرين بالسوء فهي ليست من حقنا على الإطلاق، إن الكبت المادي والمعنوي التي تعرضت له صفاء خلال حياتها في مقتبل عمرها جعل منها إنسانة جشعة لا تعلم عن الضمير شيئًا، تبرر لنفسها كل الأفعال وترسم الطريق لها دون خوف أو تردد، ترى في نفسها الأميرة التي يرغبها العديد من الرجال الضائعين في حب قناع الجمال المزيف وكان كل ما عليها هو استغلال ذلك بكل قوة ورغبة شريرة، فبررت لنفسها كل شيء حتى

وصل التبرير لعالم الجريمة، إن - الفوجا - التي تعرضت لها صفاء لم تستفق منها بعد ولن تستفيق لأن من جعل المال غاية ظل له عبد يبرر أي شيء وكل شيء.

قد يعتقد البعض أن لكل شيء بداية ونهاية ولكنني أعتذر لمعتنقي تلك النظرية فإن البداية قد تكون بدأت بالفعل دون علم منا كالسقوط في الحب كحالة خالد الذي حوله الحب إلى رجل أعمى يفعل أي شيء وكل شيء لأجله دون تفكير أو ربما كحالتنا الفوجية التي جعلت من البعض مجرمًا ومن البعض الآخر جشعًا وإن النهاية قد تكون مرت بنا آلاف المرات دون أن نعي، فقد نتصور أن النهاية هي النهاية التقليدية بالحكم على الجميع بحكم رادع ولكن النهاية أبدًا لا تعني الانتهاء. فهناك جزء ما مازال عالقًا في كل نفس من نفوس أبطالنا وربما أيضًا في نفسك أنت، فأرى أن كل شيء مرتبط بالجزء الذي لا نعلمه عن أنفسنا.

دعونا الآن ننتظر حياة أخرى في رواية أخرى.

المحتويات

الشكر	٥
مقدمة	٧
الفصل الأول	٩
الفصل الثاني	٢٥
الفصل الثالث	٣٩
الفصل الرابع	٦١
الفصل الخامس	٨٣
الفصل السادس	٩٧
الفصل السابع	١٢١